بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع الكتاب والسنة

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٥٣

سورة الحجرات
منهج تربوى لمجتمع مثالى

رسالة
لنيل درجة الماجستير

مقدمة من الطالب
عبد الحميد عمر الأمين

جامعة أم القرى / مكة المكرمة
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات

باشراف
فضيلة الدكتور / الحسينى عبد المجيد هاشم
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

١٥٢
٢١٥٠ ل

مكة المكرمة
١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

اهـــداء وكلمـــة شكـــــــر

الحمد لله واهب النعم ، والصلاة والسلام على رسول الله محمـــد صلى الله عليه وسلم ـ من أرسله الله رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا وهاديـا ومعلما باذن الله وسراجا منيرا .

وانني اذ أتقدم باهداء رسالتي هذه الى والدي اللذين كانـــا سبب وجودي في هذه الحياة وربياني ، وبذلا في سبيل اسعادي كل غـال ورخيص ، مع حرصهما الدائم على أن أكون مسلما راضيا لله ولرسوله . وبذلك كانت سعادتهما رحمهما الله تعالى .

ولابد لي وأنا في طريقي الى العلم والمعرفة من أن أعترف بالجميـل لكل من أدلى الي من معروف وأخص بالذكر أساتذتي وشيوخي الافاضـــل حفظهم الله ورعاهم وقوى وأيد ووفق من هو على قيد الحياة منهم ورحـم اللـه من توفاه وأدخله فسيح جناته فانهم جزاهم الله عني كل خير لم يدعوا جهدا في تقديم كل نافع ومفيد . وأخص من شيوخي فضيلة الدكتور الشيخ الحسيني عبد المجيد هاشم بالشكر الجزيل بما تولاني به من رعايته وحسن توجيهـــه وغمرني بطيب أخلاقه وسجاياه الكريمة حيث أعطاني العلم صافيا وأدبني بحاله أكثر من مقالـه ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لعمادة كلية الشريعـــة وقسم الدراسات العليا بمكة المكرمة على ما تفضلوا علينا به من كرم وحســـن ضيافة وطيب معاملة حيث أشعرونا بأنا نعيش بين أهلنا وفي بلدنا وأكـرم بها من بلد . وأسأل الله تعالى الكريم أن يجزي عني بالخير كل من أدلى الـــي بمعروف أو خدمة ، وأشكر الجميع .

قال عليه الصلاة والسلام : " من لم يشكر الناس لا يشكر الله ... " .

الفهـــــــــرس

الموضـــــــوع	الصحيفـة
الإهـــــــداء	—
مقدمـة الرسالـــة	١
البـــــاب الأول	
التربية وتعريفهـــا :	٧
— المعنى اللغوى للتربية	٨
— تعريف التربية الاجتماعية	٩
— أثر العقيدة الاسلامية فى تربية السلوك والأخلاق	٩
— التصريحات الأولية فى التربية عامة	١٣
— نشأة التربية وتطورها	١٤
— التربية عند اليونان	١٥
— التربية النصرانية	١٦
التربيـــة الاسلاميـــة :	١٦
— أهداف التربية الاسلامية	١٧ـ١٩
— أساليب التربية الاسلامية	١٩ـ ٢٢
— محاسن التربية الحديثة	٢٣
— أهم المآخذ على التربية الحديثة	٢٤
البـــاب الثانـــى	
أسبـــاب النـــزول .	٢٧ـ٩
البـــاب الثالـــث	
— تعريف علم بالسورة	٥١
— ترابط السورة بما قبلها	٥٣
معنـى التقديـــم :	٥٦
— الأحكام التى تؤخذ من الآية	٥٨

الموضـــــوع	الصحيفـــة
ـ ماتوحيه الآية	٦٢
ـ حكم رفع الصوت بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم	٦٥
ـ الآداب التي تؤخذ من الآيات	٦٥
ـ حكم ايذاء النبي صلى الله عليه وسلم	٦٨
ـ حكم رفع الصوت عند قبره الشريف	٧٢
ـ ماتوحيه الآيات	٧٣
الباب الرابع	
المنهج العلمي في التحري عن نقل الأخبار :	٧٦
ـ صفة من تقبل روايته	٧٩
ـ عدالة الراوى	٨٠
ـ شروط العدالة	٨١
ـ ضبط الراوى	٨٢
ـ الجرح والتعديل	٨٢
ـ الفروق بين الرواية والشهادة	٨٦
الباب الخامس	
مبدأ الاصلاح في المجتمع الاسلامي :	٩٨
ـ اصلاح ذات البين وأثر ذلك في الحياة الاجتماعية	٩٩
ـ تعليل أسباب الخلاف	١٠٠
ـ الأحكام التي تؤخذ من الآية ـ " وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ..... " الآية	١٠٢
ـ العدل في الصلح	١٠٣
ـ الاخـــوة	١٠٦
ـ ماتوحيه الآيات	١٠٨
ـ الظن وحكمه	١١٤
ـ ماقيل في التجسس	١١٥
ـ حكم الجاسوس	١٢٠

الموضـــــوع	الصحيفة
ـ معنى الغيبة وحكمها	١٢٢
ـ ميزان الله تعالى فى البشر هو التقوى	١٢٦
ـ ماتوحيه الآيات	١٣٨
البـــاب الســـادس	
صفـــات المؤمنيـــن :	
ـ معنى الايمان والاسلام	١٤٠ـ١٤٨
ـ صفات المؤمنين	١٤٨
الاخلاص وأثره فى الأعمال :	١٦١
ـ فضيلة الاخلاص	١٦٣
الخاتمـــــــة .	١٦٥
ثبـــت المراجـــــع.	١٧٠

مقدمة الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، حمدا يليق بجلال وجهه وجماله • ونستعين به ونسترشده ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسأله سبحانه وتعالى العون والتوفيق فيما نصبو اليه من خير ، وما نقصده من عمل — مخلصين له الدين • طالبين منه أن يسدد الخطى ، ويؤلف القلوب ، ويهديها الى امتثال أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم — وبعد :

لعل أهم ما يتبادر للذهن في أول الأمر ، ويتساءل المرء في نفسه ، عندما يقدم على اختيار بحث من الأبحاث ، وموضوع من الموضوعات ، وكتاب من الكتب ، ماهو الموضوع الذى سوف أتناوله ؟ وماهى الأهمية منه ؟ وما هو الدافع اليه ؟ وماهى فائدته العامة والخاصة ؟ وهل يعالج الموضوع الذى اختاره أمرا مهما يحتاج اليه في هذا العصر ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التى تنتاب الانسان عندما يقدم على كتابة أى عمل كتابى يدلى به بين الدلاء لعله يصيب شيئا نافعا فيكون قد أفاد واستفاد ، أفاد من حيث ما يكتبه ويؤلفه ، واستفاد الأجر والمثوبة عند الله تعالى فيما قدم من عمل وبذل من مجهود وضحى من وقت شريطة أن تكون النية خالصة لله تعالى • وبذلك الأجر العظيم • نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا وما نقصد اليه خالصا له سبحانه وتعالى هو نعم المولى ونعم الوكيل •

فالحالة التى يعيشها العالم اليوم ، وما تتخبط به البشرية من نظم ومن مبادئ تسير على غير هدى ومن ضلال وزيغ وانحراف أودى بأخلاق الأمم والشعوب ، وأصبحوا في متاهات وضياع جعل الكثير من بنى البشر ممن أعطاهم الله بعض العلم والفهم انطلقوا يفتشون للبشرية عن حل ينقذها مما هى فيه •

فانقسم هؤلاء الى قسمين الأول : منهم وهم الكثرة الكثيرة التى سخرت ما أنعم الله عليها من علم ومعرفة في انتهاج غير سبيل الله تعالى • فضاعت وأضاعت وزادت البشرية في آرائهم ومناهجهم وقوانينهم حيرة وتيها • وهذا القسم كذلك انقسم الى فريقين : فريق بقى معه جانب الايمان بوجود الله سبحانه وتعالى مع زيغ في عقائده • فحافظ على نفسه في الاعتقاد وفصل ما يكتبه ، وما ينتهجه وما يرتئيه عن اعتقاده ، فدخل في طريق مسدود لا يعرف له مخرج • —

والفريق الثانى جانب الايمان وكفر بالله وأصبح نهجه وما يعتقده وما يراه من طرق منقذة هو الاله الذى اصطنعه لنفسه وهى المادة فزاد فى حيرته وضياعه ، وكلف البشرية من المآسى والمحن والنوازل والابتلاء ما أثقل كاهلها ، وانحطت قيمها حتى كادت أن تعود الى البهيمية الطلقة أو عادت فى كثير من تصرفاتها وأخلاقها ، وحافظ على نوع من البشرية شكلا ومظهرا ومادة . فكان شر هذا الفريق أشد من الفريق الاول ، وبالتالى كان القسم الاول شر كله ، فلاهو نجح فيما أراده من انقاذ فضاع وأضاع .

وأما القسم الثانى : وهم القلة بالنسبة للكثرة الاولى ، فكذلك انقسموا الى فريقين : فريق أول خلط عملا صالحا وآخر سيئا أراد خدمة الانسانية عن طريق الهداية الالهية عن طريق الشريعة الربانية والمنهج القويم الذى أتى به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن رب العالمين . فكان صالحا فيما انتهج وأراد ، وأساء بحيث تتطلع الى بهارج حوله وأراد لهذا النهج الربانى أن يحمل مارآه الآخرين ، فحمله مالم يكن فى أصل منهج رب العالمين فزاغ بعض الزيغ ، ونسى أن المنهج الربانى وحيد بمثاله ، ويسموه وكيانه ، بحيث جمع أعلى المثل ، فلايقبل الشوائب أن تتنابه أو تعتريه . وهذا الفريق اجتهد وأراد أن يظهر المنهج الربانى بمظهر التقدمية التائهة والعدالة المزيفة ،والحرية المخروقة المستعبدة .

وفريق ثانى تمسك بالحق الذى آمن به وأيده وسعى اليه بكل ما آتاه الله من قوة لابرازه للبشرية بصورة جديدة فى الاسلوب لا جديدة بالجوهر ، لأن الجوهر نقى صافى لا يعتريه الفساد ولا يتناوله الزيغ " تنزيل من عزيز حميد " وبذلك سعدوا فيما قاموا به وأسعدوا من انتهج ذلك الطريق .

وان الامة الاسلامية قد أصابتها عدوى بعض الدعوات فأوقعتها صريعة المبادئ والنظم ، ورمتها بداء الكسل والتخلف نتيجة ما اغتروا به وقلدوه فكان على الحكام وعلى شعوبهم وبالا ودمارا ، وذلا وهوانا ،فأتانا الخطر من حيث المأمن وظنناه تقدما وازدهارا . وكل هذا حصل فى حالة الضعف والجهل الذى مر على الامة الاسلامية فى مرحلة من مراحل التاريخ وذلك نتيجة للابتعاد عن المنهج الربانى الذى كان سبب هذا العز والامجاد والتقدم والحضارة

والقيادة للعالم • وهذا العز الذى لا نزال نعيش فى ظله ، ونترنم به ، ونفتخر به • ولعل أمتنا تصحوا من جديد نتيجة هذه المآسى التى وقعت بها وتمر عليها • وانشاء الله فجر الاسلام قد بان أفقه لتعود أمتنا لحمل راية الهداية والرشد الى البشرية من جديد كما أنقذتها من قبل من الجهل والتخلف •

فلهذا كله وما هو عليه من حال وجدت فى سورة الحجرات المنهج المثالى الذى يبعث بالأمة من جديد اذا ما هى اتبعته بتطبيق شريعة الله واتباع كتاب الله وسنة رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم •

وبحق سورة الحجرات بآياتها الثمانية عشر معالم منهج متكامل لمجتمع مثالى منتظر خروجه من قريب باذن الله تعالى • وسوف يظهر هذا بعون الله من خلال العرض العام للسورة الكريمة ، وابراز عناصرها الأساسية ومنهج البحث فيها مع ذلك الجهد الضعيف الذى بذلته • فما أحسنت فيه فبتوفيق من الله وحده ، وما أخطأت فيه فمن تقصيرى وضعفى • فان أصبت برأى أو بفكرة فذلك فضل من الله ونعمة أنعمها على ، وان أسأت فذلك قسمى والحمد لله أولا ـ وأخيرا وهو يتولى الصالحين •

وهذه الرسالة المعروضة للقراء وللنقاد ، فهم أصحاب الرأى فيها ، وهم أحسن من يبرز الخطأ لأن الانسان مهما كان فعجزه يقصر به عن ادراك كل خطئه وعيوبه • فنرجو الله تعالى أن يوفقنا واياهم لابراز الحق واظهار الصواب ، مع اقرارى وعدم ادعائى بأن ما قمت به ليس هو الكمال وانما هو سهم بين سهام ملقات ، لعل هذا السهم يصيب صيدا نافعا ، ويقع مكانه كما أردت وما قصدت اليه •

والسورة بجوانبها الكثيرة لا يوفيها كتاب وكتاب وانما هى منبع حكمة ومنطلق نور ، ودائرة معارف ، ما يزيدها البحث الا اعطاء وسخاء من الخير العميم لنفع بنى البشر ، ولمن أراد سعادة الدنيا والآخرة والله الموفق •

وقد تناولت فى منهج بحثى ما يأتى :

١ ـ قسمت السورة الى أبواب ستة ومقدمة وخاتمة • فكان الباب الأول وهو فى التربية • وتضمن الباب بعض تعاريف المحدثين للتربية ، وتعريف

علماء الاسلام لها مع مقارنة موجزة وابراز محاسن التربية الاسلامية وأسسها وأهدافها وأثر أهم عنصر من عناصرها وهو العقيدة • مع نبذة عن نشأة التربية وتطورها ، والتربية عند اليونان والنصارى •

وكذلك محاسن التربية الحديثة والمآخذ التى قيلت فيها ، وكل ذلك بايجاز واختصار •

والباب الثانى : وقد تضمن أسباب النزول للآيات الكريمة فى سورة الحجرات •

والباب الثالث: كان فى معنى التقديم وما يتناول ذلك من أحكام ومن معانى تربوية سلوكية وعقيدية ومسلكية • مع ابراز الآداب العامة والآداب الخاصة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحكم ايذائه مع التعرض لبحث فقهى فى حكم المرتد وبخاصة المرتد بايذاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم •

وقد قدمت هذا الباب بتقديم عام للسورة وكذلك بتناسبها وترابطها مع ما قبلها وهى سورة الفتح وذلك للرابطة القويمة والتناسب القائم بين معانى كلا السورتين وبما تناولته السورة الأولى فى آخر آياتها من التربية العملية فى الميدان وعلى الواقع وبالقدوة الحسنة • فأتت السورة التى بين أيدينا لتكمل وتؤكد على سمو الاتباع وحسن الاقتداء بالمربى الأول ـ محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة ، وبأن ذلك هو سبب وجود هذه الأمة وعلو مكانتها وقوتها وازدهارها وعزتها ونجاحها وسعادتها فى الدنيا والآخرة •

الباب الرابع :

ولما كانت السورة منهج تربوى متكامل استمرت السورة فى عرض وتقديم المبادئ والأسس التى يقوم عليها كيان المجتمع المسلم والجماعة المسلمة ، وذلك كله للحفاظ على كيان الجماعة المسلمة من أن يهددها الخطر أو يعمل فى كيانها فساد يضيع تماسكها وقوتها وترابطها • فكان التأكيد القوى والمتين والثابت للمنهج القويم الذى يبقى على الجماعة المسلمة سلامتها من أن تذهب بها مكيدة ، أو يزعزعها دخيل أو منافق أو مغرض •

لذلك نبه الله تعالى رسوله والمؤمنين من أن يأخذوا بأى خبر يأتيهم

فلابد قبل تصديق أى خبر أو قول من التثبت الكامل والتحرى الدقيق • فكان هذا المنهج طريق الى علم الحديث وعلم الرواية التى لم تحظ أى أمة من الأمم بما حظيت به أمتنا من هذا المنهج فى التحرى عن الأخبار • فخدموا رضى الله عنهم السنة أجل خدمة ، ونشأ عن ذلك علم الجرح والتعديل ، فكانت معرفة الرجال والرواة على أدق ما يمكن أن يوجد عليه منهاج فى دقة التحرى والتثبت •

ثم تتابعت الآيات الكريمة فى التركيز على أمر هام وجد هام للغاية وهو الاتباع والانقياد لما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه باتباعه والانصياع لأمره الخير العظيم لهم عند ما تكون الطاعة له فى كل أمر يأمر به — صلى الله عليه وسلم لأن الأمر اذا سار على ما تطلبه نفوسهم وأهواءهم فبذلك المشقة والعنت عليهم •

ثم الباب الخامس :

حيث استعرضنا فيه ما أتى فى الآيات الكريمة من تقرير لمبدأ القتال بين طوائف المؤمنين والحكم فيه مع التحديد العظيم للفئة التى تبغى والحكم فيها وطريقة ردعها مع التأكيد على مبدأ الصلح والعدل فيه • وذلك فى نطاق الايمان ونداءاته الحبيبة الى القلوب •

ثم تؤكد الآيات على مبدأ الأخوة الايمانية ومالها من مكانة وبأنها هى الأساس وهى الأقوى مع التنفير من كل قول أو فعل أو عمل قلبى أو على حسى أو معنوى • وذلك ردعا عن كل ما يسبب الفرقة ويثير الضغائن ويشيع الشك والريبة فى صفوف الجماعة المؤمنة فيشل حركتها ويقوض أركانها فكان التأكيد على ترك ما يفرق ويشتت وذلك لتحل المحبة محل البغضاء والايثار محل الطمع والحسد ، والصفاء مكان الكدر ، والألفة مكان التنافر ، لأن المجتمع النظيف لا يقوم الا على الأخلاق النظيفة العالية • ولا يقوم الا على نبذ وابعاد كل أخلاق ذميمة • مجتمع لا يقوم الا على الطهر والصفاء •

ثم قررت الآيات الكريمة الميزان الربانى العظيم فى التفاضل بين البشر حيث رد البشر الى أصلهم الأول وذكرتهم بحقيقتهم ، وأن البشر فى ذلك أكفاء ويتفاضلون بالعقيدة السليمة والاخلاص لله سبحانه وتعالى بالعبادة باتباع ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم • عندئذ تتحقق التقوى التى هى أساس التفاضل وهى وحدها المقبولة فى ميزان الله ولا غير •

والباب السادس :

وقد تناول معنى عاما للا يمان والاسلام و ذلك لتحديد ما انطلق منه الأعراب وادعائهم الايمان بكان الاسلام . ثم أتى تقرير الله تعالى لهم بعد الرد عليهم و دحض ادعائهم بأن من ادعى الايمان لابد أن يتحقق بصفات وأخلاق معينة عددها لهم . ثم اذا اتصف المرء بالايمان فلا يدفعه ايمانه الى المنة على الله ورسوله ويعترف فى قرارة نفسه وفى كل شىء من ذاته بأن الفضل لله وحده فى النعمة الكبرى والهبة العظيمة وهى نعمة الايمان ، وأن طاعة الله ورسوله أصل فى ايمان المؤمن ، من هذه الحقيقة الايمانية نرى الاذعان الكامل والتسليم المطلق لله تعالى مع الاخلاص فى السر والعلن ، لأن الله تعالى الذى وهب نعمة الايمان ، لا يخفى عليه شىء فهو المطلع على سرائرهم وظواهرهم ، عالم الغيب سبحانه وتعالى .

ثم خاتمة موجزة عرضت فيها بلمحة سريعة الى ما تناوله البحث من أهم المعانى والمبادىء والأسس . واننى اذ أتقدم بالشكر الجزيل لكل من أدلى الىّ بمعروف حسى أو معنوى . ولا يفوتنى أن أذكر أستاذى وشيخى الفاضل الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم على ما أولانى به من عناية ومساعدة وتوجيه قيم وخلق كريم وتواضع سمح . وقد أعطانى من وقته الكثير فشكرا له وجزاه الله عنى كل خير و أتقدم كذلك بالشكر الى عمادة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية والى المشرف على القسم ولكل عامل مخلص قدم لى العون والمساعدة . وأرجو من الله تعالى أن يقبل عملنا و يجعل ما قمت به و ما قدمت خالصا لوجه الله تعالى . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الباب الأول

التربية وتعريفها :

١ ـ المعنى اللغوى للتربية .
٢ ـ تعريف التربية الاجتماعية .
٣ ـ أثر العقيدة الاسلامية فى تربية السلوك والأخلاق .
٤ ـ التعريفات الأولية فى التربية عامة .
٥ ـ نشأة التربية وتطورها :

أ ـ التربية عند اليونان .
ب ـ التربية النصرانية .

التربية الاسلامية :

١ ـ أهداف التربية الاسلامية :

أ ـ التثقيف العقلى والتهذيب الالهى .
ب ـ تنمية الاستعدادات الفطرية عند الانسان .
جـ ـ الاهتمام بالنشىء وتربيته .
د ـ العمل على توازن جميع القوى والاستعدادات الانسانية .

٢ ـ أساليب التربية الاسلامية واتجاهاتها :

أ ـ التعليم بالمحاولة وترك الأخطاء .
ب ـ التربية بالعادة .
جـ ـ الاهتمام المستمر والمراقبة .
د ـ القدوة .
هـ ـ التربية بالترغيب والترهيب .
و ـ التربية باستعمال الوسائل الحسية .

محاسن التربية الحديثة :

أهم المآخذ على التربية الحديثة .

التربيـــــة وتعريفهـــا

المعنى اللغوى للتربية : لـ

للكلمـة ثلاثة أصـول :

الأصل الأول : ربا يربو بمعنى زاد ونما ، ومنه قوله تعالى " وما أتيتم من ربا ، ليربوا فى أموال الناس فلا يربو عند اللـــه " سورة الروم آية ٣٩ .

الأصل الثانـى: ربى (على وزن خفى) بمعنى نشأ وترعرع .

الأصل الثالث : (ربب) : يقال رب فلان الأديم : أصلحه بالشب ونحوه حتى يصلح شيئا فشيئا ، ورب الضيعة يربها اذا أتمهـا وأصلحها .

وحول هذه المعانى نجد تفاسير متعددة للرب فى شرح قوله تعالى : " الحمد لله رب العالمين " نذكر أقربها الى مرادنا التربوى وهو ما جاء فى كتاب (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) المشهور بـ (تفسير البيضاوى) وهو قوله فـى أول تفسير سورة الفاتحة) (ص ٣ طبعة مكتبة الجمهورية سنة ١٣٨٠هـ) : " أصل الرب : بمعنى " التربية وهى تبليغ الشىء الى كماله شيئا فشيئـــا " ثم وصف به تعالى للمبالغة " .

فتربية الناشىء على هذا الأصل هى (العمل على ايصال الناشـــىء الى كماله شيئا فشيئا) . وهذا المعنى ، لعمرى ، يشمل كل ما جاء فى كتـب التربية الحديثة من تعاريف ويزيد عليها فكرة الكمال ، فهو يحوى معنى (النمو) ويزيد عليها توجيه هذا (النمو) نحو الأكمل والأفضل . ويشمل معنى (التطور) ولكنه يجعله تطورا نحو الأكمل ... " .

فالتربية عند علماء الاسلام هى العمل على رعاية نمو الناشىء وتوجيه استعداده ومواهبه ووظائفه النفسية حتى تصل الى كمالها .

وعلم التربية فى هذا العصر يبحث كل ما من شأنه أن يحقق هذا الهدف

أو يؤثر فيه ، فهو " علم يبحث ما من شأنه أن يؤثر فى نمو الناشىء وتطوير استعداده ووظائفه النفسية والجسمية والعقلية والخلقية والروحية ... الخ " ولكن هذا التعريف الحديث أغفل (هدف التربية) الذى حرص عليه علماء الاسلام وهو (بلوغ الكمال) . لاسيما أن الكمال أضيف الى ما يراد تربيته ولكل كائن (كماله) الذى يتناسب مع تركيبه وغاياته وكيانه الخاص به .

ولما كنا نتحدث عن تربية الانسان ، فاننا نستطيع أن نعرف علم التربية : " بأنه العلم الذى يبحث فى كل ما هو كفيل بابلاغ الانسان الى كماله الانسانى) . "١"

تعريف التربية الاجتماعية :

" فالتربية الاجتماعية اذن هى العمل على النهوض بجميع الاستعدادات والمشاعر الاجتماعية عند الناشىء ، وتبليغه كماله من هذه الناحية ، تبليغا يتناسب مع أهداف أمته ومصالحها العليا . والجو المدرسى العام بأنظمته ونشاطه ، وعلاقاته ، وما يتمتع به المشرفون والمدرسون من أخلاق عالية ، تجعلهم قدوة فى المعشر والتعاون والشعور بالمسئولية ، هو من أهم الوسائل المحققة للتربية الاجتماعية . "٢"

وفى المصدر السابق عنوان يبين :

أثر العقيدة الاسلامية فى تربية السلوك والأخلاق والضمير :

لقد بين علماء الأخلاق ومنهم الفيلسوف الألمانى (كانت) أن العمل الأخلاقى لا يكفى فيه أن يكون فى ظاهره متفقا مع ما يجب أن يعمله الانسان ، بل لابد من أن ترافقه ارادة الخير الخالص من الرياء أو السمعة أو الغرض ، فأساس العمل الأخلاقى فى الوجدان الطاهر لا فى المظهر العابر ، ولا تجد عقيدة أقوى من عقيدة التوحيد على تطهير الوجدان وتصفيته . فالانسان الذى يعتقد بتعدد الآلهة يقيم التعدد على أساس اختلاف الاختصاصات ، فاله الجبل فى رأيه لا يعرف شيئا عن أمور البحر أو السهل ، واله الليل لا يستطيع أن يتدخل فى شئون اله النهار . فكيف يستطيع ذلك الانسان أن يتصور اله الجبل يدخل الى نفسه ، ويطلع على خفايا صدره ونوايا قلبه ؟ ان ذلك لا يتأتى

---

(١) التربية ـ طرق التدريس ـ عبد الرحمن النحلاوى ـ عبد الكريم عثمان ـ محمد خير عرقسوس ـ ج ١ ص ١٢

(٢) المصدر السابق ـ ج ١ ـ ص ١٩١

الا اذا ترك الانسان الشرك واستسلم للتوحيد الخالص الذى يربطه باله واحد عالم بكل شىء ، مطلع على كل شىء هو الله الذى يعلم السر وأخفى ١٠ هـ .

ويقول المؤلف :

ولو استعرضنا التربية فى الماضى والحاضر فى كل الأعصار وكل الأمصار لم نجد أقدر من التربية الاسلامية على تنقية الوجدان وتطهيره وتزكيته وتعطيره ، بل هى الوحيدة التى جعلت ذلك هدفا واضحا من أهدافها ، ونصت عليه فى جميع المناسبات . قال الله تعالى : " والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) " الشمس ـ ١ ـ ١٠ " . وقال صلى الله عليه وسلم " انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه " ـ أو كما قال عليه الصلاة والسلام . وقال عليه الصلاة والسلام " ألا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) . وقال أيضا : " ان الله لا ينظر الى صوركم وأقوالكم " [1] ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم " الحديث .

وبذلك فقد استطاعت التربية الاسلامية أن تتحدى كل التربيات قديمها وحديثها . " [2] "

---

(١) وقد ورد لفظ أموالكم بدل لفظ أقوالكم وذلك عند السيوطى فى الفتح الكبير ص ٣٥١ ط . دار الكتب العربية الكبرى بمصر ورمز اليه فى رواية مسلم وعند ابن ماجه .
وذكره السيوطى فى الجامع الصغير عن أبى هريرة ص ١٢٤ ج ١

(٢) ويعلق المؤلف تعليقا جيدا وموفقا فيقول :

فى عصرنا هذا ، فى القرن العشرين ، وفى دولة من أرقى دول العالم ـ أقول (ماديا) مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، التى لا تبخل على التربية لا بالمال ولا بالرجال ، لاحظ المربون أن عددا كبيرا من طلاب المدارس الأمريكية ، يؤلفون عصابات للسرقة وقطع الطرق وترويع الآمنين ، بينما يأخذ الزنوج المسلمون الى مدارسهم الاسلامية عددا ممن سبق أن حكم عليهم بالسجن لأعمال غير أخلاقية قد ارتكبوها فلا يلبثون أن ينقلبوا فى المدارس الاسلامية الزنجية الى أشخاص =

مثاليين فى أخلاقهم وسلوكهم ! فتنادى المربون الى عقد مؤتمرات تدرس هذه المشكلة التربوية ، ولم يفتهم أن يدعو ممثلا عن المدارس الزنجيـــة للمسلمين ، وأن يعترفوا أمامه بفضل التربية الاسلامية على الأخلاق والسلـوك ويسألونه عن السبب لعلهم يأخذون به ؟ ولكن السبب كامن فى صلب العقيـدة الاسلامية ولا يستطيعون أن يستفيدوا منه الفائدة الحقة الا اذا خضعـــوا لعقيدة التوحيد قلبا وقالبا • (يراجع عن هذه المؤتمرات كتاب : الزنـوج المسلمون فى أمريكا) •

والحقيقة أن التربية الاسلامية الأخلاقية لا تقتصر على بناء الأخـلاق من منبعها الأول وهو (الوجدان) أو (القلب) كما يسميه رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بل هى تحدد لها مجراها وتوضح لها مصبها ، وحسبنـــا لبيان ذلك أن نرجع الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الدين النصيحـة " وحديث " كلكم راع ومسئول عن رعيته " وحديث " من غش فليس منا " و "لايكون المؤمن شتاما ولا صخابا " و • • أمثال ذلك من الأحاديث الأخلاقية التـى لا تدع جانبا من جوانب الحياة الا حددت مجرى الحياة الأخلاقية المثاليـة فيه ، من المنزل الى السوق الى الوظيفة ، والى البيع والشراء حتى فى معاملـة الرجل لولده وأهله • • • • • •

وأبدع من ذلك وأروع هو سبق التربية الاسلامية الى توضيح مصـــب الأخلاق ومستودعها ، فلقد نادى الأخلاقيون كثيرا بالغيرية ، وأن تحـــب لأخيك ما تحب لنفسك ، وهم يرمون من وراء ذلك الى أن يكون الفرد نافعـــا لأبناء أسرته وقبيلته أو وطنه وأمته ، ولا زلنا الى اليوم نرى الانكليزى الصالـح يخدم الأمة الانكليزية باخلاص ، ولو كان ذلك على حساب الشعوب الأخـــرى وكذلك الفرنسى الصالح وكذلك الأمريكى • أما الروسى فان المثل الأعلـــى الأخلاقى عنده أن يخدم طبقة على حساب طبقة أخرى مهما كان من وراء تلـك الخدمة من ظلم أو اعتداء ، أما الأخلاق الاسلامية فشرطها أن تكون خالصـة لله الواحد القهار • ولما كان الخلق جميعا عباد الله فان مصب هذه الأخلاق لا ينحصر فى فئة دون الأخرى ، ومعنى ذلك أن الأخلاق الاسلامية أخـــلاق وجدانية فى منبعها ، انسانية عالمية فى مصبها •

ولا تكاد تجد تربية فى العالم كله من التربيات القديمة أوالحديثة تحدد للفرد أخلاقا مثالية حتى فى معاملة عدوه فتقول (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى).

ولا تجد ولن تجد فى التربيات كلها قديمها وحديثها قائدا فى نشوة النصر وساعة الظفر ،غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكون همه الأول أن يوصى جنده بحسن معاملة الأسرى ، فيقول (أحسنوا معاملة أسراكم).

ولا تجد ولن تجد غير التربية الاسلامية تخرج أميرا مثل عمر يحاكم ولاته على معاملتهم لأهل البلدان المفتوحة ويضرب ذويهم ويقول (متى استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) . بينما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ " الله الله فى أهل الذمة " . ويقول : " من آذى ذميا فقد آذانى " .

تلك هى التربية الاسلامية التى تقوم على أساس عقيدة التوحيد ، فى موقفها من العلم ومن العمل ومن السلوك ، وما أحوج الناس فى العصر الحاضر الى الأخذ بتلك التربية !

ولا شك أن الذين ينادون بنبذ تلك التربية للأخذ بالتربية الغربية الملحدة انما يقولون ذلك لجهلهم بتربيتنا العربية الاسلامية .[1] وحرى بنا نحن المسلمين أن نأخذ بتربيتنا الاسلامية لأنها مصدر العز والرفعة فى الدنيا والأخرى ولتكون فى تطبيقها العملى حقيقة واقعية ومظهرا سلوكيا فيه أكبر الدليل على عظمة ما ندعو اليه الناس من الخير والهداية .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ـ ص ٤٦ ـ ٤٧

ونأتي على بعض التعاريف الحديثة للتربية وهي التعريفات التي تطرق اليها علم المجتمع والتربية وعلم النفس في العالم وهذه هي :

التعريفات الأولية في التربية عامة :

يقول " ليترى LITTRE " ان التربية هي العمل الذي نقوم به لتنشئة طفل أوشاب ، وانها مجموعة من العادات الفكرية أو اليدوية التي تكتسب . ومجموعة من الصفات الخلقية التي تنمو " .

وهناك تعريفات متباينة تباين مذاهبهم الفلسفية والتربية في نظر "هربارت HERBART " " تكوين الفرد من أجل ، بأن نوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة " . وعند " وليم جيمس William James مادة فن " يكتسب في الصف عن طريق ضرب من الحدس وعن طريق الملاحظة التعاطفية للوقائع ولمعطيات الواقع " .

أما " دوركهايم DURKHEIM " فيرى فيها تكوين الأفراد تكوينا اجتماعيا .

ويرى " جيمس ميل JAMES MILL " الفيلسوف النفعي أن موضوع التربية " أن نجعل من الفرد أداة سعادة لنفسه ولغيره " .....

.....

أما كنت " KANT " فهدف التربية عنده " أن تنمي لدى الفرد كل مايستطيعه من كمال " وهو كما يفهمه " كنت " فهما خلقيا أكثر منه ميتافيزيقيا .

بينما يرى " رونوفييه RENAUVIER " على العكس " أن الانسان لا يغدو سعيدا حقا الا اذا سار بنفسه نحو الكمال ، وغدا أحسن مما هو ، " ويسير الانسان نحو الكمال عندما يقترب جهده من أن يكون كاملا وفق طبيعته " .

ويصف عالم النفس " هنري جولي HENRI JOLY " التربية أنها " مجموعة الجهود التي تهدف الى أن تيسر للفرد الامتلاك الكامل لمختلف ملكاته ، وحسن استخدامها " (١)

---

(١) التربية العامة ـ رونيه أوبير ـ ترجمة د . عبد الله عبد الدائم ص ٢١ الى ٢٥ ـ بيروت دار العلم للملايين .

وهناك تعاريف أخرى ونكتفى بما تقدم لانه يعطينا الضوء على آراء الآخرين فى النواحى التربوية • ومع ذلك فان الكتاب الغربيين عندما كتبوا عن التربية فى الشرق تجاهلوا التربية الاسلامية تجاهلا تاما الا من بعض الذكر لها من بعض الكتاب ، وتناسوا المربين الاسلاميين • ولعل أبرز من كتب وألف فى موضوع التربية الاسلامية هو الامام أبوحامد الغزالى وابن خلدون وغيرهم من علماء المسلمين ، فقد تجاهلوا هذا الجانب عند المسلمين ، اما لجهل فيهم أو لحقد دفين فى نفوسهم جعلهم يجانبون الحق ويسكتون عنه ولعل الكثير منهم اقتبس بعض المعانى من التربية الاسلامية •

ومن خلال استعراض التعاريف السابقة نجد أن البعض قارب التعريف الاسلامى بعض الشىء ، وبعض آخر كان فى الجانب الآخر • وعلى هذا سوف نذكر انشاء الله ما فى التربية الحديثة من محاسن وما عليها من مآخذ •

نشأة التربية وتطورها :

لا نستطيع أن نحدد الزمان الذى نشأت فيه التربية منذ القديم ، ذلك التحديد الرياضى القائم على الأرقام ، ولكن نشأت التربية بالنسبة للانسان مع وجوده • فالله سبحانه وتعالى وجه الانسان الى خيره وشره منذ خلقه • وفى الآيات الكريمة ما يشير الى ذلك • قال الله تعالى :

" وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم •

. . . . . .

" وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون •

اذن نشأت التربية بنشوء الانسان وذلك بتوجيه من الله تعالى عن طريق رسله الذين رسموا للانسانية أهدافها وقيمها الروحية ومثلها العليا فى الأخلاق وفهم الحياة •

وعلى مر الأزمان صار للانسان المفهوم الثابت فى كثير من القيم التى أخذت تتداول بين الأجيال • وكانت الفترات التى تتوالى لتقيم مفاهيم البشرية ولترد ما انحرف به البشر الى القيم والمثل • وبذلك كان التنظيم التربوى المتناسق والمستمر على مر الأزمان •

ثم نشأ بعد ذلك نظريات تربوية ظهرت نتيجة الانعكاسات المقبولة عند كل شعب ، وصار لكل أمة أسسها التربوية التى توجه أجيالها عليها • فمثلا :

التربية عند اليونان :

المعروف أن اليونان بلد فلاسفة وأرض حضارة منذ القديم • وهى احدى البلاد التى تعد حضارتها مرجع لأصحاب النظريات الفلسفية • فهم قادة فكر لمن بهر وأخذ بهم • ومع ذلك فهم أمة لها طريقها فى التربية التى تقوم على أساس الحياة الاجتماعية التى كانوا يعيشونها ومتطلبات السياسة والجماعة الموجهة الى نوعية خاصة من التربية " كان فى اليونان عاصمتان تتناحران على السيادة • احداهما " اسبارطه " والأخرى " أثينا " • فكان الجيل يربى فى "اسبارطه" تربية عسكرية ، فيعود الناشئون والجند على التعذيب والارسال فى مهمات عسكرية ، وكتمان الأسرار ، ونحو ذلك ،حتى انقلبت اسبارطه الى ثكنة عسكرية ، أما فى " أثينا " فكان الجيل ينشأ تنشئة فكرية تختلف باختلاف الفلاسفة • ولكل فيلسوف أتباعه فى السياسة ، والآراء الاجتماعية ، والفكرية • • • • • • • • • • • • • • وفى كل منهما كانت العقائد الوثنية هى الطابع المسيطر على التربية • "١"

وهذا التأثير السياسى والفكرى والمذهبى الالحادى ما نشاهده ونلاحظه فى زماننا حيث تتوجه الدولة بما تحمل من فكر ومبادئ الى تنشئة الجيل على ما تعتقده من زيغ مستعملة فى ذلك كل الوسائل • وذلك ليكون الطابع المسيطر على تربية شعبها العقائد المنحرفة الالحادية المادية•

---

(١) المصدر السابق ــ ص ١٤ ــ ١٥ بتصرف •

التربيـة النصرانيـــة :

تقدم معنا بأن الرسل كانوا يأتون على فترة من الزمن مرشدين ومصححين ولكن الاتباع هم الذين ينحرفون بعد فترة من الزمن ، وذلك من خلال ما يمليه عليهم هواهم ونفوسهم ، حتى أتى عيسى عليه السلام بعد موسى عليه السلام وصدقه الحواريون فنشروا الدعوة الى الله والى المحبة .

ثم جاء أناس ابتدعوا رهبانية ماكتبها الله عليهم . فأنشأوا أجيالا من بعدهم مرنوهم على هذه الرهبانية والزهد والمحبة ،فكانت التربية ـ النصرانية ـ تقوم على نشر الدين وتعويد النفس على التقشف وتهذيبها ، وعلى التسامح وطاعة رجال الدين في كل شيء وهكذا . "[1] حتى اتخذوهم أربابا من دون الله ، ولكن هذه الدعوة التي يقولها صاحب الكتاب المؤلف ان كانت تنطبق عليهم في بعض الزمان ولكن ليست صحيحة من أزمان بعيدة حيث كثرت بينهم الدعوات الضالة ـ والانحرافات الخلقية ـ وأصبح أمرهم لا انسانية فيه ولا رهبانية حتى أعماهم طغيانهم عن رؤية كل حق واستحلوا دماء الشعوب واحتلالهم فلم تعد دعوتهم انسانية ، وللهداية . كما يدعون ، وانما للكسب السياسي والمادي المحض . فأساءوا الفهم وحاولوا بذلك استعباد عقول الناس وتسخيرهم لغير ما خلقوا له بأن انحرفوا بعقائد الناس من عبادة الله وحده الى عبادة العباد . وبذلك نسبوا الربوبية والالوهية لبعض رسل الله وأنبيائه . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .....

التربيـة الاسلاميـــة :

ان الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالاسلام فجعل الله فيه ختما للرسالات وللأديان السماوية وخاتما للرسل والأنبياء فلا رسول ولا نبي بعده صلى الله عليه وسلم . فأنقذ الله به البشرية من الظلم والجهل وأخرج به البشرية من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، ومن عبادة الطواغيت والأصنام الى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن العبودية الى الحرية ، ومن امتهان الكرامة الى حفظ الكرامة والحرمات .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥ ـ بتصرف

فكان للتربية الاسلامية التى أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهداف وأساليب تربوية .

أهداف التربية الاسلامية :

١ ـ التثقيف العقلى والتهذيب الالهى :

وجه الله سبحانه وتعالى عباده الى التدبر والتأمل والتفكر فى خلق السموات والأرض قال الله تعالى " ان فى خلق السموات والأرض ـ واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . (آل عمران) .

ولم يقتصر توجيه العقول والقلوب الى التدبر فى هذا الكون العظيم ليصلوا منه الى الايمان اليقينى ليستدلوا منه على عظمة الخالق من آثاره فى خلقه ، بل يوجههم الى حقيقة قائمة وقريبة من كل انسان وهى نفسه التى بين جنبيه قال الله تعالى " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " ثم كان التوجيه الى كل شىء فى حياتنا الفردية والعائلية والسياسية ومسائل الموت والحياة والبعث والنشور وبين لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهج التوحيد الذى وحد مشاعرنا ونوازعنا النفسية بحيث تتجه الى الله وحده . ونظم لنا أمورنا اليومية والأسبوعية التى تقوى رابطة العبد بربه ففى يومه العبادات من الصلوات الخمس وغيرها من الأوراد والأذكار مع لقاء أسبوعى عام يلتقى به المسلمون لقاء فرضيا الا لصاحب عذر من مرض أو سفر أو الى غير ذلك مما هو مقبول .

فأصبحت بذلك حياة المسلم كلها حياة علم وتأمل وفقه . أصبح وقته كله خير . والذى يتربى على الخير وحب الخير لا يصدر منه الا كل خير وكل نافع ومفيد للبشرية ولبنى الانسان . وبذلك كان الاسلام دين الله الخالد الذى ختم به الأديان ورضيه للخلق أجمعين .

٢ ـ تنمية الاستعدادات الفطرية عند الانسان :

لما كان كل انسان يولد على الفطرة البريئة الصافية البعيدة عن الأهواء

والشكوك والشرك والخبث ، فطرتعلى دين الفطرة فكانت مهمة المربـــى بهذا الاعتبار هو الحفاظ على هذه الفطرة من الزيغ والانحـــراف وتقوية الايمان فى نفس المربى ودليل ذلك قول رسول الله ـ صلـــى الله عليه وسلم ـ :

حدثنا عبدان أخبرنا عبدالله أخبرنا يونس عن الزهرى أخبرنى أبوسلمـة بن عبدالرحمن أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " ما من مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانـه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسـون فيها من جدعاء " ؟ . ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه ـ " فطـــرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الديـــــن القيم " . "١"

٣ ـ الاهتمام بالنشىء وتربيته :

لقد حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاكثار من الذرية وتربيتهـا التربية الحسنة ومن الحض على الزواج والتكاثر .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم " تناكحوا تكاثروا فانى مباه بكم الأمـم يوم القيامة " أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وكان صلى الله عليه وسلم يهتم بالأطفال ويسلم عليهم وقد راعى الاسـلام متطلبات الأطفال وحث على الاعتناء بهم كى يكتمل من جميع النواحـــى التربوية فيكون شخصية متكاملة . وهذا ماينبغى أن يربى عليه الطفل مـن حب التضحية والشجاعة والمروءة والكرم والخلق الطيب وغرس المحبة فـى نفسه . وبذلك تكون التنشئة على التراحم والتحابب والرحمة بالأطفـال مع غرس محبة الله ورسوله وصحبة الأهل وطاعة الوالدين والخوف من الله ومراقبته بالسر والعلانية مع تقدير الأطفال وتقديمهم بعلمهم ، ومن ذلك أن يؤم القوم أكثرهم قرآنا ولو كان صغيرا .

كل ذلك لتقوية الثقة بالنفس عنده ولتكتمل رجولته وشخصيته .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الجنائز ـ ١٣٥٩ ـ من فتح البارى جـ ٣ ص ٢١٩ ورواه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه .

٤ ـ العمل على توازن جميع القوى والاستعدادات الانسانية :

يقول مؤلف كتاب التربية وطرق التدريس " تتألف الحياة النفسية من وظائف واستعدادات انسانية ، وميول ودوافع فطرية منها الغريزى ومنها الميول السامية الراقية . ولم يكن الاسلام ليخلق بالانسان فى ميوله الراقية فقط كالميل الى التدين والمعرفة ، ويحرمه من باقى الدوافع كحب المرأة والولد والأصحاب ، بل كان نظاما للحياة بأكملها .

فقد أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على فئة من الصحابة اعتزم بعضهم اعتزال النساء وبعضهم صوم الدهر وبعضهم قيام الليل من غير نوم كما هو فى الحديث فقال صلى الله عليه وسلم فى حديثه وفى رده على أولئك (..... أما والله انى أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى " [1]

أساليب التربية الاسلامية واتجاهاتها :

ومن أساليب التربية الاسلامية العلمية التى كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يتبعها وأصحابه من بعده فكانت رائعة راقية فاقت فى حينها الأساليب التربوية السائدة اليوم .

١ ـ التعليم بالمحاولة وترك الأخطاء :

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا يراقب تعليم الصحابة ويتركهم برهة ليطبقوا تعاليم الاسلام ثم يصحح لهم أخطاءهم حتى يتعلموا بالممارسة والتجربة . ومن أشهر الأدلة على ذلك حديث المسىء صلاته . وهو أعرابى دخل المسجد فصلى وأخطأ ، وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرده الرسول ليصلى حتى فعل ذلك ثلاث مرات وفى الثالثة طلب من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلمه فعلمه صلى الله عليه وسلم بعد أن اشتاق الى التعليم . وقد استفاد هذا الصحابى من خطئه لانه لم يعد ليخطىء بعد ما عانى من الخطأ وتألم منه . " [2]

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ـ ص ١٧ .
(٢) " " ص ١٨ .

ومن الأساليب التربوية الاسلامية :

أ) التربية بالعادة بحيث نعود الصغير على العادات الفاضلة من كرم وشجاعة ومروءة واحترام الكبير والرحمة ..... الخ .

ب) الاهتمام المستمر والمراقبة الدائمة لاعطاء الملاحظات في الوقت المناسب .....

ج) القدوة : وقد تكون هذه من أهم الوسائل والأساليب التربوية ، لأن الصغير دائما يتطلع الى تقليد الكبير ، فالطفل يحرص على تقليد أبيه والتلميذ يحرص على تقليد أستاذه . وذلك من باعث الاعجاب والتقدير الذى يكمن فى نفس الطفل لأبيه والتلميذ لأستاذه .

والله سبحانه وتعالى جعل القدوة فى ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم لأن النظر والتقدير لا يحيد حيث الكمال فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ".

د) التربية بالترغيب والترهيب : وهو أسلوب قرآنى عظيم . قال تعالى : " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى . ..... "

وقال تعالى " ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . "

والآيات كثيرة فى كتاب الله الكريم التى تؤكد هذا الأسلوب من الترغيب والترهيب .....

٢ ـ التربية باستعمال الوسائل الحسية :

وهذا الأسلوب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم لايضاح الأمور الغامضة ولتفسير بعض المعانى لآيات القرآن الكريم . فنرى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يفسر قول الله تعالى " وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .. " (١)

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣

خط خطا مستقيما وخط على جانبيه خطوطا ، فالخط المستقيم هو سبيل الله تعالى وشرعه ، والخطوط الأخرى التى على الجوانب هى سبل الشيطان وطرقه ودعواته المنحرفة .

وفى صحيح البخارى المثال الواضح على نوعية هذه التربية فى الحديث: حدثنا صدقة بن الفضل ، أخبرنا يحيى بن سعيد عن سفيان قال حدثنى أبى عن منذر عن ربيع بن خثيم عن عبد الله رضى الله عنه (هو عبد الله بن مسعود كما ذكره ابن حجر فى الشرح) قال : خط النبى صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط خطا فى الوسط خارجا منه وخط خططا صغارا الى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط وقال : هذا الانسان وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذى هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فان أخطأه هذا نهشه هذا ، وان أخطأه هذا نهشه هذا " "١

وكثير من الأساليب التربوية العالية من استعمال القاء الأسئلة والحوار وما الى ذلك من التساؤلات يريد بها انسانا لم يعينه بالتساؤل بصيغة العموم. وكذلك عندما كان يأتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ويجيبه . وبذلك تعليم للصحابة رضى الله عنهم .

ومن الأساليب حسن تحين الفرص والأوقات المناسبة لالقاء الموعظة والنصيحة التى يقوم عليها أمر تربوى ، وهذا أمر هام وعلى هذا الأساس كانت تنزل الآيات القرآنية بعد سبب أو أسباب .

والأسلوب الآخر والهام فى كل ما تقدم وهو الأسلوب القصصى فكانت القصة فى القرآن منهجا تربويا على اختلاف مواقعها ومقاصدها .

ونذكر هنا ماقاله محمد قطب " والقرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التى يشملها منهجه التربوى ، تربية الروح ، وتربية العقل ، وتربية الجسم ، والتوقيع على الخطوط المتقابلة فى النفس ، والتربية بالقدوة ، والتربية بالموعظة ، فهى سجل حافل لجميع التوجيهات ، وهى كذلك ـ على قلة عدد ـ الألفاظ المستخدمة فى أدائها ـ حافلة بكل أنواع التعبير الفنى ومشخصاته

---

(١) فتح البارى ـ جـ ١١ ـ ص ٢٣٦ كتاب الرقاق ـ المطبعة السلفية .

من حوار الى سرد الى تنغيم موسيقى الى احياء للشخوص ، الى دقة فى رسم الملامح ، الى اختيار دقيق للحظة الحاسمة فى القصة لتوجيه القلب للعبرة ، والتوقيع عليه بالنغم المطلوب " "١"

" ونختم خلاصة التربية الاسلامية وأهدافها وأساليبها بكلمة لمحمد قطب " كل قوة فى الحق ، كل تضحية فى سبيل الله ، كل صدق وأمانة واخلاص واستقامة ، كل رحمة شفيفة ، كل مودة وحب ، كل عمل للخير ، كل حس مرهف وسلوك مهذب كل قوة خيرية دافعة . كلها ، مادامت مخلصة لله ، تحسب فى ميزان العظمة ويكتب لها البقاء .....
.....

وتلك ثمرة التربية الاسلامية فى واقع الأرض " "٢".

وبعد ذلك نذكر ماقيل عن التربية الحديثة من مآخذ ومحاسن وميزات ، وبذلك تتم معنا الموازنة بين التربية الاسلامية والتربية الحديثة .

---

(١) منهج التربية الاسلامية ـ محمد قطب ـ ص ٢٣٩ ـ دار الشروق
(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٨٩ .

أ ـ محاسن التربية الحديثة :

ان النقد النزيه يجعلنا نتعرض لذكر محاسن التربية الحديثة للأخذ بها وذكر المآخذ من أجل تجنبها والابتعاد عنها . فلا نأخذ ها جملة كشيء مسلم ولا ندعها لمجرد أنها من عند غيرنا للقول " الحكمة ضالة المؤمن " :

١) الاهتمام الأول والأخير للتربية الحديثة هو الطفل على خلاف ما كان في الأول حيث كانت المناهج والعلوم هي مركز الاهتمام عند الأقدمين . وأما في التربية الحديثة أصبحت المناهج والعلوم تقدر بالمقدار الملائم لسن الطفل والباعث على نشاطه ونموه المتكامل .

٢) صرفت اهتمامها لتكون كل الأساليب والوسائل ملائمة مع نمو الناشيء وباعثه على هذا النمو المتكامل من جميع النواحي ، الجسمية والعقلية ..... والهوايات ..... فكل الوسائل من غرف وألعاب ومخابر ومطاعم وملاعب وقاعات مطالعة كل ذلك يخدم النواحي المتقدمة .

٣) أعطت التربية الحديثة الطفولة حقها من اللعب والمرح والنشاط والمحبة والأمن لأهمية هذه المرحلة من مراحل العمر وتعتبر مرحلة هامة وأساسية .

٤) لقد هيأت التربية الحديثة الظروف لجميع المستويات مع مراعاة فروق المواهب والقدرات العقلية . بحيث يتهيأ لكل فرد ما تخوله له قدراته وطاقاته .

٥) قوت التربية الحديثة العنصر الذاتي عند الناشيء بحيث يعتمد على نفسه في نشاطه وجهوده في التحصيل . وهذا يجعل عنده الرغبة أقوى في الطلب والانتاج بعكس الطريقة قديما التي كانت طريقة تلقينية محضة يقل فيها عنصر الرغبة والشعور بلذة الطلب .

أهم المآخذ على التربية الحديثة :

١) اهمال التربية الحديثة لأمر هام وأساسى من أسس الحياة الفكرية الانسانية ألا وهى العقيدة التى تركز على الايمان بوجود الله ووحدانيته. وعندما تركت التربية هذا الجانب فكأنما أبعد الناشىء عن أهم شىء فى حياته وكيانه الانسانى ، ورمت به فى فلاة لا يعرف مصدر حياته ولا من أين أتى ولا الى أين هو صائر .

وهذا انقطاع كبير وفجوة عميقة تجعل الناشىء والانسان يعيش فى حيرة وضياع .

وأما ما اتخذه الغربيون من ربط كل شىء وخلقه الى الطبيعة فكذلك هذا من السخف الذى يمله ويمقته ويجعل الانسان فى هاوية لا قرار لها فيعيش فى حيرته نتيجة اصطدامه بالواقع وتعرفه بالتالى الى سخف الدعوى وسخف هذا الدين الذى يرد للطبيعة كل شىء هذا الدين الذى ابتدعه هؤلاء حيث يكررون قولهم " ان الطبيعة قد وهبت الكائن كذا وكذا من خصائصه وطاقات نموه " .

" وكيف يكون الانسان وهو العاقل الواعى عبدا لها ومخلوقا وهو الذى يتسلط على كثير من قوانينها ويتصرف فى بعض قواها ؟ ! (فى حدود عالمه الأرضى) .

وخلاصة القول أن :

" المأخذ الأول على التربية الحديثة الغربية اذن هو تأليه الطبيعة والاقرار بعبودية الكائن البشرى لها . وحاشا للانسان الذى كرمه الله وسلطه على قوى الكون وسخر له مافى السموات والأرض أن يكون عبدا لغير الله . انه أسمى وأرفع من ذلك بكثير . "[١]

٢) " ولم يجد الانسان الحادى المعاصر فى اتجاهه العلمانى نحو تأليه الطبيعة ، مايرضى غروره فى تعامله الاجتماعى والقانونى والدولى والأخلاقى فالطبيعة لا تحل له مشكلاته الأخلاقية والاجتماعية والتشريعية " .

لذلك انطلق الانسان الحائر ليفتش له عن اله آخر يحقق له مايريد ويملأ

---

(١) انظر ـ المصدر المذكور آنفا ـ ج ٢ ـ ص ٧٥ ـ ٨٣

عنده ذاك الفراغ فأشرك نفسه مع الهه الأول وهو الطبيعة فجعل لنفسه حق التشريع لبنى البشر من تحريم وتحليل ومبادئ وأسس أخلاقية واجتماعية ومثل وقيم •

فكان نتيجة لذلك أن تزعزعت العقائد الصحيحة والمثل العليا والقيم العالية الحقيقية وتعرضت للنقد وللمعارضة وللمحاربة بحيث تحل محلها الاباحية واللاأخلاقية • فأصبحت الفضيلة محاربة بقانون والرذيلة محمية بقانون فسيطر الهوى مكان العقل ، وعميت العيون عن رؤية الحق ، وصمت الآذان عن سماعه • ففسدت الأخلاق وانطلق الجيل الجديد يسير وراء شهواته وطغيانه لأن التربية لم يعد لها ارتباط بالله جل جلاله •

وذلك لو بحثت فى الاتجاهات التربوية الغربية الحديثة تجد (تربية الحواس) و (تربية العقل) و (تربية الذوق الفنى) •••• الخ ، ولما وجدت نظرية تربوية مشهورة تذكر تربية (الاستعداد الدينى) أو نموه كجزء من أسلوبها وفلسفتها •

وبهذا انتشرت فى المدارس والجامعات ـ الجدلية ـ لتحل محل الايمان ، والعقائد الملحدة والوثنية المشركة ، لتحل محل عقيدة التوحيد وصار كثير من المثقفين ينظرون الى (التفكير العلمى الكونى) فى الغرب نظرة اعجاب واكبار ، اذ يتظاهر أربابه ويدعون أنهم حرروا عقولهم من الدين ، وما علموا أنهم أخضعوا أنفسهم الى دين وثنى فيه الذل والخرافة والوهم •

انه العبودية للطواغيت من البشر وللوثنية الطبيعية • كما صار بعض المثقفين ينظرون الى دينهم الحق ، اما نظرة حيرة وتردد ، واما نظرة خجل وازدراء ، ونسوا أنه الايمان الحق ، والوعى الكامل ، والنور المبعد عن الذل والخرافات ، والموحد لنزعات النفس ، ولجميع طبقات الأمة ، وانه السلاح المعنوى الرائع الذى فتح به أجدادنا الدنيا • " "١

---

(١) المصدر نفسه ـ بتصرف •

وأهم ما تقوم عليه التربية الحديثة والمنطلق التى تنطلق منه هو المادة ولذلك تجد الناحية الأساسية فيها هوالمفهوم المادى ، وجانبت بذلك النواحى الأساسية فى تربية الوازع الحقيقى عند الانسان وهو خوف الله تعالى الذى هو رأس كل أمر لأنه من الخوف الذى يتركز فى القلب تنشأ المراقبة الدائمة وذلك من الشعور بمراقبة الله تعالى واطلاعه عليه وأنه محاسبه فان أحسن فله الأجر والمثوبة عند الله وان اساء فله العقاب والعذاب .

فترى سلوك الشخص المربى على عقيدة الايمان بالله سويا مستقيما مثاليا لا يحتاج فى عمله الى رقيب من البشر . وبهذا تقوم الأمم القوية والمجتمعات الصالحة التى يتطلع اليه بنو البشر فى هذا العصر .

واننا لن نحظى بالتقدم الحقيقى والرقى الحضارى والمركز القيادى فى العالم الا بالرجوع الى هذا الدين الذى كان السبب فى كل مجد وعز وكرامة وحرية وتقدم وازدهار ننادى به الآن أو نصبوا اليه . والتاريخ أكبر شاهد على ما نقول كيف كنا وكيف أصبحنا بالاسلام ، الذى جعل الله به سبب عزنا وكرامتنا فهو المنهج المتكامل فى جميع جوانبه من عقيدية وسلوكية وأخلاقية وتربوية — استعرضنا فى الباب نبذة عنها وأبرزنا أهم الاهداف والاساليب التربوية الاسلامية مع عرض سريع لما أتى فى التربية الحديثة وما لها وعليها .

ولما كانت سورة الحجرات المنهج التربوى المتكامل كانت موضوعا لهذه الرسالة .

والله الموفق .

البـــاب الثانـــى

أسبـــاب النـــــــزول

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب النـــــزول

قبل الدخول فى موضوع السورة وعناصرها الرئيسية وما يؤخذ منها وما يستفاد من مبادىء أساسية فى منهج التربية القرآنية • قبل ذلك كله نقف على ما قيل فى أسباب النزول وصلة السورة بما قبلها لما لذلك من الأهمية •

ومما قيل فى أسباب نزول الآية الكريمة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) •••

قال الواحدى فى كتابه أسباب النزول :

أخبرنا أبو نصر محمد بن ابراهيم قال أخبرنا عبيد الله بن محمد العكبرى قال أخبرنا عبيد الله بن محمد البغوى قال أخبرنا الحسن بن محمد الصباح قال أخبرنا حجاج بن محمد قال أخبرنا ابن جريج قال حدثنى ابن أبى مليكة أن عبد الله ابن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر ــ أمّر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمّر الأقرع بن حابس• فقال ابو بكر ما أردت الا خلافى وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل فى ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله الى قوله ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم) رواه البخارى عن الحسن بن محمد الصباح •

وذكر صاحب زاد المسير ابن الجوزى الجزء السابع قال فى أسباب نزول هذه الآية المتقدمة أربعة أقوال :

أحدها : أن ركبا من بنى تميم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابو بكر أمّر القعقاع بن معبد ••••••• الخ كما تقدم الى قوله ــ فماكان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (بعد هذه الآية) حتى يستفهمه ، رواه عبد الله ابن الزبير "١"

---

(١) زاد المسير ــ ابن الجوزى ــ بيروت ــ المكتب الاسلامى ج ٧ ــ ٤٢٤ ــ باب " ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون " مادون قوله " فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستفهمه " فانه ذكر فى الباب الذى قبله من سورة الحجرات باب " لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ••)

الثاني : أن قوما ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا الذبح ، فنزلت هذه الآية ، قاله الحسن "١"

الثالث: أنها نزلت في قوم كانوا يقولون : لو أنزل الله في "كذا وكذا" فكره الله ذلك ، وقدم فيه ، قاله قتادة . "٢"

الرابع: (أنها نزلت في عمرو بن أمية الضمري ، وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قاله ابن السائب "٣").

وذكر بعض الطرق الأخرى التي ذكرها صاحب الدر المنثور في تفسيره للسيوطي ـ الجزء السادس ص ٨٣ ـ ٨٤ .

أخرج بن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون لو أنزل في كذا وكذا لوضع كذا وكذا فكره الله ذلك وقدم فيه .

= الآية من حديث ابن أبي مليكة ، ثم قال : قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، يريد بذلك قوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...) الآية .
والحديث تقدم ذكره عن الواحدي في أسباب النزول بسنده ص ٢٥٧ دون قول ابن الزبير : " فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستفهمه " .
وأورده السيوطي في " الدر " بنحوه من رواية البخاري ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه . فتح الباري ـ كتاب التفسير جـ ٨ ـ ص ٥٩٢ .

(١) ذكره الطبري عن الحسن بغير سند ٢٦/١١٧ وأورده السيوطي في الدر ٦/٨٤ : وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر عن الحسن .

(٢) رواه الطبري ٢٦/١١٧ عن قتادة وذكره السيوطي في " الدر " ٦/٨٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٣) ذكره الألوسي بمعناه بغير سند ولم يعزه لأحد .

وأخرج ابن جرير وابن ابى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله قال نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضى الله عنه أن ناسا ذبحوا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر فأمرهم أن يعيدوا ذبحا فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) .

وأخرج بن ابى الدنيا فى الاضاحى عن الحسن رضى الله عنه قال : ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله فى قوله لا تقدموا بين يدى الله ورسوله قال لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم .

وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن عائشة رضى الله عنها قالت كان الناس يتقدمون بين يدى رمضان بصيام يعنى يوما أو يومين فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ...) .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها أن ناسا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) .

وأخرج عبد بن حميد وابى جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن مجاهد فى قوله لا تقدموا بين يدى الله ورسوله . قال : لا تفتاتوا "١" على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء حتى يقضى الله على لسانه .

قال الحفاظ هذا التفسير على قراءة تقدموا بفتح التاء والدال والله أعلم .

وقد ذكر القرطبى فى أسباب نزول هذه الآية الكريمة أقوال تضمنها بعض ما تقدم ذكره فقال :

اختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة :

---

(١) افتات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه فى الأمر : حكم عليه وافتات برأيه : استبد به .

الأول : ما ذكره الواحدى من حديث ابن جريج وقد تقدم ذكره ولكنه زاد على الواحدى بعد قوله رواه البخارى عن الحسن بن محمد بن الصباح قال ذكره المهدوى أيضا .

الثاني : ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا اذ مضى الى خيبر ، فأشار عليه عمر برجل آخر ، فنزل " ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله " ذكره المهدوى أيضا .

الثالث : ماذكره الماوردى عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه الى بنى عامر فقتلوهم ، الا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفؤا "١" الى المدينة ، فلقوا رجلين من بنى سليم فسألوهم عن نسبهما فقالا : من بنى عامر ، لأنهم أعز بنى سليم فقتلوهما فجاء نفر من بنى سليم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : ان بيننا وبينك عهدا ، وقد قتل منا رجلان ، فداهما النبى صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية فى قتلهم الرجلين .

الرابع : قال قتاده : ان ناسا كانوا يقولون لو أنزل فى كذا . لو أنزل فى كذا ؟ فنزلت هذه الآية . وقد تقدم هذا القول كذلك .

الخامس : قول ابن عباس وقد تقدم .

السادس : قول مجاهد وذكره البخارى أيضا وقول الحسن قد تقدم كذلك .

وقول ابن جريج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر القاضى ابن العربى خمسة أقوال مما تقدم وهى الأخيرة منها

---

(١) انكفأ القوم انكفاء : رجعوا وتبددوا .

فى كتابه أحكام القرآن الجزء الرابع ص١٧٠٠ وسردها قبله الماوردى كما ذكر ذلك القرطبى. قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ، فالله أعلم.

ما كان السبب المثير للآية منها ولعلها نزلت دون سبب والله أعلم) "١"

وأما قول القاضى بعد ذكره بأن الاقوال صحيحة ولعلها نزلت بدون سبب فهذا القول نقض لأمر صححه من قبل. ورواية البخارى فى أسباب نزول الآية والصحيح ماعليه البخارى ولو تعددت الأسباب والله أعلم.

وقد ذكر البغوى الحديث الذى رواه الحسن من طريق آخر قال :
أخبرنا عبد الواحد الطليجى أنا احمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن اسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا شعبة عن زيد عن الشعبى عن البراء قال خطبنا النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر قال " ان أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل أن نصلى فانما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك فى شىء " وروى مسروق عن عائشة أنه فى النهى عن صوم يوم الشك أى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم "٢"

وذكره الجصاص فى كتابه أحكام القرآن الجزء الثالث ص٣٩٧ عن مسروق أنه دخل على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فأمرت الجارية أن تسقيه فقال انى صائم وهو اليوم الذى يشك فيه فقالت قد نهى عن هذا وتلت (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) فى صيام وغيره.

قال أبو بكر اعتبرت عموم الآية فى النهى عن مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم فى قول أو فعل

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى لا تعجلوا بالأمر والنهى دونه "٣" والله أعلم.

---

(١) القرطبى ـ آيات الأحكام جـ ١٦ ـ ص٣٠١ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
(٢) البغوى جـ ٨ ص٣.
(٣) الجصاص ـ أحكام القرآن ـ جـ ٣ ـ ص٣٩٧.

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) . وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

قال البخارى : حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمى ، حدثنا نافع ابن عمر عن ابن ابى مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بنى تميم فأشار أحدهما بالاقرع بن حابس أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع لا أحفظ اسمه ـ فقال ابو بكر لعمر : ما أردت الا خلافى ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما فى ذلك ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) الآية . قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن ابيه . يعنى ابا بكر "١"

ثم قال البخارى : حدثنا الحسن بن محمد حدثنا حجاج عن ابن جريج قال أخبرنى ابن أبى مليكه أن عبدالله بن الزبير أخبرهم أنه " قدم ركب من بنى تميم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر بل أمر الاقرع بن حابس . فقال ابوبكر ما أردت الى ـ أو الا ـ خلافى فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل فى ذلك : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) حتى انقضت الآية . "٢"

وقال البخارى : حدثنا على بن عبدالله حدثنا أزهر بن سعد أخبرنا ابن عون قال أنبأنى موسى بن أنس عن أنس بن مالك رضى الله عنه " أن النبى صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكسا رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال شر . كان يرفع صوته فوق صوت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى ، فرجع اليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال اذهب اليه فقل له : انك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة " "٣"

---

(١) فتح البارى ابن حجر جـ ٨ ـ ٥٩٠
(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ـ ٥٩٢
(٣) المصدر نفسه ـ جـ ٨ ـ ص ٥٩٠

حدثنا محمد بن المثنى أخبرنا مؤمل بن اسماعيل أخبرنا نافع بن عمر بن جميل الجمحي قال حدثنا ابن ابى مليكة قال " حدثنى عبدالله بن الزبير ان الاقرع بن حابس قدم على النبى صلى الله عليه وسلم قال فقال ابو بكر يارسول الله استعمله على قومه ،فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله ، فتكلما عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال ابوبكر لعمر ما أردت الا خلافى . فقال عمر ما أردت خلافك .

قال فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) قال وكان عمر بعد ذلك اذا تكلم عند النبى صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يستفهمه قال وما ذكر ابن الزبير جده يعنى ابا بكر . هذا حديث غريب حسن . وقد رواه بعضهم عن ابن ابى مليكة مرسلا ولم يذكر فيه عن عبدالله ابن الزبير "١" .

حدثنا يسرة بن صفوات بن جميل اللخمى حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة قال " كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ،رفعا أصواتهما عند النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بنى تميم ،فأشار أحدهما بالاقرع ابن حابس أخي بنى مجاشع وأشار الآخر برجل آخر ــ قال نافع لا أحفظ اسمه ــ فقال ابوبكر لعمر : ما أردت الا خلافى ،قال : ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما فى ذلك ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) الآية .

قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن أبيه . يعنى ابا بكر ." "٢"

حدثنا على بن عبدالله حدثنا أزهر بن سعد أخبرنا ابن عون قال أنبأنى موسى بن أنس عن أنس بن مالك رضى الله عنه " أن النبى صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل يارسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال شر . كان يرفع صوته فوق

---

(١) جامع الترمذى ــ شرح ــ تحفة الأحوذى ــ جـ ٩ ــ ص ١٥١ ــ الناشر محمد عبدالمحسن الكتبى .

(٢) هذا السياق صورته الارسال لكن ظهر فى آخره أن ابن أبى مليكة حمله عن عبدالله بن الزبير (كما فى الشرح لابن حجر) .

صوت النبى صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى ، فرجع اليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال اذهب اليه فقل له انك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة " "١"

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم ...) الآية (عن ابن ابى مليكة) قال كاد الخيران ان يهلكا ابوبكر وعمر رضى الله عنهما لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفد بنى تميم اشار احدهما بالاقرع بن حابس الحنظلى أخى بنى مجاشع واشار الآخر بغيره قال ابوبكر لعمر انما أردت خلافى فقال عمر ما أردت خلافك فارتفعت اصواتهما عند النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) الى قوله عظيم) قال ابن ابى مليكة قال ابن الزبير فكان عمر بعد ذلك (ولم يذكر ذلك عن ابيه يعنى ابا بكر) اذا حدث النبى صلى الله عليه وسلم حدثه كاخى السرار لم يسمعه حتى يستفهمه (عن انس بن مالك) قال لما نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ـ الى قوله ـ وأنتم لا تشعرون) .

وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال انا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم حبط عملى ، أنا من أهل النار . وجلس فى أهله حزينا فتفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بعض القوم اليه فقالوا له تفقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ؟ فقال انا الذى رفعت صوتى فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم وأجهر بالقول حبط عملى وأنا من أهل النار : فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما قال فقال لا بل هو من أهل الجنة . قال أنس وكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس ابن شماس وقد تحنط ولبس كفنه فقال بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل . "٢"

---

(١) فتح البارى المصدر المذكور آنفا جـ ٨ ـ ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠

(٢) الفتح الربانى ترتيب مسند احمد بن حنبل الشيبانى تحقيق احمد عبدالرحمن البنا الجزء (١٨) ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ .

قوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) الآية .

عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا الى آخر الآية ، جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال : أنا من أهل النار واحتبس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأل النبى صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ ، فقال : " يا أبا عمرو ... ما شأن ثابت اشتكى ؟ " فقال سعد : انه لجارى ، وما علمت له شكوى . قال : فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت ، أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل هو من أهل الجنة " . "١"

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا ابو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس ، حدثنى عمى اسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول) قال : قعد ثابت بن قيس رضى الله عنه فى الطريق يبكى ، قال : فمر به عاصم بن عدى من بنى العجلان فقال : ما يبكيك يا ثابت : قال : (هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فىّ وأنا صيت رفيع الصوت قال : فمضى عاصم بن عدى رضى الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وغلبه البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبى بن سلول فقال لها : اذا دخلت بيت فرشى فشدى على الضبة بمسمار ، ففعلت بمسمار حتى اذا خرج عطفه وقال : لا أخرج حتى يتوفانى الله تعالى ، أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وأتى عاصم رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال " اذهب فادعه لى " فجاء عاصم رضى الله عنه الى المكان فلم يجده فجاء الى أهله فوجده فى بيت الفرشى فقال له : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك فقال : اسحر الضبة ، قال : فخرجا فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما يبكيك يا ثابت " ؟ فقال رضى الله عنه : أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول) فقال له النبى صلى الله عليه وسلم " أما ترضى أن

---

(١) مختصر صحيح مسلم ـ الحافظ المنذرى ـ تحقيق محمد ناصر الدين الالبانى ص ٣٣٧ .

تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟" فقال : رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرفع صوتي أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم "١"

قال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه ، حدثنا الحسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) الى آخر الآية ، جلس ثابت رضى الله عنه في بيته قال : أنا من أهل النار ، واحتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ " يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى ؟ ، فقال سعد رضى الله عنه : انه جاري وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه سعد رضى الله عنه فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت رضى الله عنه :
أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنا من أهل النار ، فذكر ذلك سعد رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل هو من أهل الجنة " .

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي عن حيان بن هلال عن سليمان بن المغيرة به ، قال ولم يذكر سعد بن معاذ رضى الله عنه ، وعن قطن بن بشير عن جعفر عن سليمان عن ثابت عن أنس رضى الله عنه بنحوه ، وقال ليس فيه ذكر سعد بن معاذ رضى الله عنه .

حدثني هدبة بن عبد الأعلى الأسدي ، حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبي يذكر عن انس رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية فاقتص الحديث ولم يذكر سعد بن معاذ رضى الله عنه وزاد : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة .

فهذه الطرق معللة لرواية حماد بن سلمة فيما تفرد به من ذكر سعد ، ابن معاذ رضى الله عنه ، والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد ابن معاذ رضى الله عنه موجودا ، لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل

---

(١) ابن كثير تفسير جـ ٦ ص ٣٦٩ـ٣٧٠ دار الفكر ـ بيروت وفي ابن جرير جـ ٢٦ ـ ص ١١٨ .

سنة خمس ، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم ، و الوفود انما تواتروا فيى سنة تسع من الهجرة ، والله أعلم .

وفى الرد على هذا الاستشكال الذى وقع للحفاظ (بأن نزول الآية المذكورة كان فى زمن الوفود بسبب الاقرع بن حابس وغيره وكان ذلك فى سنة تسع ..... وسعد بن معاذ مات قبل ذلك فى بنى قريظة ، وذلك سنة خمس) .

يقول ابن حجر فى فتح البارى ـ كتاب المناقب ـ أواخر علامات النبوة " ويمكن الجمع بأن الذى نزل فى قصة ثابت مجرد رفع الصوت والذى نزل فى قصة الاقرع أول السورة قوله تعالى " لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ....)

وفى رواية الطبرى وابن مردويه من طريق زيد بن الحباب " حدثنا أبو ثابت ابن ثابت بن قيس بن شماس ....)

لما نزلت هذه الآية قعد ثابت يبكى ، فمر به عاصم بن عدى ، فقال ما يبكيك ؟ ..... ثم بقية قصته كما ذكر فى الحديث .

يقول ابن حجر فى شرح فتح البارى :
(وهذا لا يغاير أن يكون الرسول اليه من النبى صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ .

وروى ابن المنذر فى تفسيره من طريق سعيد بن بشير عن قتاده عن انس فى هذه القصة ـ
فقال " سعد بن عبادة يا رسول الله هو جارى " الحديث .

وهذا أشبه بالصواب لأن سعد بن عبادة من قبيلة ثابت بن قيس فهو أشبه أن يكون جاره من سعد بن معاذ لانه من قبيلة أخرى
أقول : وما ذكره ابن المنذر فى تفسيره يشعر بأن هناك وهم بين أى السعدين كان . وفى تصريحه بسعد بن عبادة هو أشبه بالصواب كما قال ابن حجر والله أعلم . وبذلك ينتهى الاشكال .

فتح البارى ـ ابن حجر جـ ٦ ص ٦٢٠ ـ ٦٢١ ـ كتاب المناقب

حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث ، أخبرنا الفضل بن موسى عن الحسين ابن واقد عن ابى اسحاق عن البراء بن عازب فى قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال " قام رجل. فقال يا رسول الله ان حمدى زين وان ذمى شين فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذاك الله عز وجل " هذا حديث حسن غريب. "١"

قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) .

قال احمد : حدثنا غفان ثنا وهيب قال حدثنى موسى بن عقبه قال حدثنى ابوسلمة ابن عبد الرحمن عن الاقرع بن حابس "٢" أنه نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات ، فقال يا رسول الله فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ألا ان حمدى زين وان ذمى شين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدث أبو سلمة ذاك الله عز وجل "٣"

---

(١) روى الطبرى من طريق معمر عن قتادة مثله مرسلا وزاد : فأنزل (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) الآية فى الطبرى جـ ٢٦ ص ١٢٢ ومن طريق الحسن نحوه .

وروى من طريق موسى بن عقبه عن أبى سلمة قال حدثنى الاقرع بن حابس التميمى أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخرج الينا فنزلت (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) الحديث .

ورواه احمد من هذا الطريق بلفظ أنه نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد يا محمد ، وفى رواية : يارسول الله . فلم يجبه فقال : يارسول الله ان حمدى لزين وان ذمى لشين .....

اخرجه ابن جرير فى التفسير جـ ٢٦ ص ١٢٢ . رواه الترمذى كما جاء فى التحفة جـ ٩ ص ١٥٣ المكتبة السلفية ط . الاعتماد القاهرة .

(٢) هو الاقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمى ، قال ابن اسحاق وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مكة وحنينا والطائف ـ وهو من المؤلفة قلوبهم وقد حسن اسلامه ، وقال الزبير فى النسب كان الاقرع حكما فى الجاهلية ، وقيل انه كان شريفا فى الجاهلية والاسلام.

(٣) الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى جـ ١٨ احمد عبد الرحمن البنا ص ٢٨١ . =

قوله تعالى (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ...) الآية

أخبرنا أبو بكر القاضي قال حدثنا محمد بن يعقوب قال حدثنا محمد بن اسحق الصغاني قال حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا حسن بن عمر الأخمسي قال حدثنا مخارق عن طارق عن أبي بكر قال لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) قال أبو بكر فآليت على نفسي ألا أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا كأخي السرار "١".

قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) :

اخبرنا احمد بن عبيد الله المخلدي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن زياد الدقاق قال حدثنا محمد بن اسحق بن خزيمة قال حدثنا محمد بن يحيى العتكي قال حدثنا المعتمر بن سليمان قال حدثنا داود الطفاوي قال حدثنا مسلم البجلي قال سمعت زيد بن أرقم يقول : أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة يا محمد يا محمد فأنزل الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) "٢"

وذكر ابن العربي في أحكام القرآن في سبب نزول الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...)
بقوله ثبت في الصحيح عن ابن عمر قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر نحوه كما أورده البخاري ...

= (تخريجه) أورده الحافظ الهيثمي ص١٠٨ وقال رواه احمد والطبراني وأحد اسنادي احمد رجاله رجال الصحيح ان كان ابوسلمه سمع من الاقرع والا فهو مرسل كاسناد احمد الآخر = ١ هـ .
وقال الحافظ في الاصابة وقع في رواية ابن جرير التصريح بسماع ابي سلمة من الاقرع ١ هـ .
وهو ما رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبه عن أبي سلمة قال حدثني الاقرع بن حابس التميمي ... الحديث ورواه الترمذي من وجه آخر عن البراء ابن عازب وقال حديث حسن غريب ١ هـ .

(١) الواحدي أسباب النزول جـ ١ ص٢٨٨ ط الهندية بمصر ١٣١٥ و
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ــ ٢٨٩ ــ

الآية (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ....)

ومما يقال فى أسباب النزول أنها نزلت فى الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لأمه بأنه عندما أرسل الى بنى المصطلق واليا ومصدقا فالتقوه .

فان الآية قد نزلت لتقرير حكم عام لبيان التثبت من الأخبار لما يقوم على ذلك من المصالح وسد لباب الذرائع والخلل فى الصفوف وتغير للنفوس ووقوع الفتنة بين الاخوة فى الايمان وبين الجماعات وذلك مافيه من انتشار الفساد وذيوع الفوضى وحلول البغضاء والشحناء مكان الحب والالفة والمودة والاخاء .

نعم انها نزلت فى ذلك الوقت لبيان حادثة وقعت ، وتاريخ لنزول الآية الكريمة ولم يقل الله تعالى أنها نزلت لكذا ، وكذلك لم يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها نزلت لبيان ذلك فحسب . والاولى حملها على العموم مع صدق ما ورد فى موقعتها مع الابتعاد عن التخيل أو الحدث بأن لفظ الفاسق فى الآية الكريمة كان للوليد وذلك شىء بعيد لأن الوليد توهم وظن فأخطأ ، والمخطىء لا يسمى فاسقا مع أن الفاسق كما ورد فى أكثر من موضع ، هومن خرج عن ربقة الايمان ، قال الله تعالى (ان الله لا يهدى القوم الفاسقين). وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) وقوله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) .

وكان العموم بلفظ الفسوق للغلبة ولما هو واقع بالغالب من الفساق الذين يريدون الفتنة ويتجرأون بالكذب لينفذوا أمرا أرادوه من أهواء أنفسهم من غير رادع وذلك لما طغى على قلوبهم من زيغ وانحراف أبعدهم عن الخوف من الله ، فكان ديدنهم الوقيعة بين الناس وبين المؤمنين . "١"

---

(١) انظر فخر الرازى فى تفسير الآية .

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... والله عليم خبير) .

حدثنا محمد بن سابق ثنا عيسى بن دينار ثنا أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي[1] قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني الى الاسلام فدخلت فيه[2] وأقررت به فدعاني الى الزكاة فأقررت بها وقلت يارسول الله أرجع الى قومي أدعوهم الى الاسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل الي رسول الله صلى الله عليه وسلم لابان[3] كذا وكذا ليأتيك ماجمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث اليه احتبس عليه الرسول فلم يأته ، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة[4] من الله

---

(١) جاء في الاصابة وفي كتب الرجال أن اسمه الحارث بن أبي ضرار ، وذكره الحافظ بن كثير في تفسيره فقال هو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار ملك بني المصطلق ووالد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين ،
ابن كثير ذكر في تفسيره والدة ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين جـ ٣ ص ٨٠ ، ١١ ابن كثير والبغوي . وفي ابن كثير جويرية) ط. دار الفكر .
والظاهر أن اسم والده ضرار ولكنه اشتهر باسم جده كما في سعد بن مالك ابن ابي وقاص فانه اشتهر باسم جده فقيل سعد ابن أبي وقاص والله اعلم اهـ.

(٢) سبب اسلامه كما ذكر ابن اسحق في المغازي أنه جاء الى المدينة ومعه فداء ابنته بعد أن أسرت وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم قال فلما كان بالعقيق نظر الى الابل فرغب في بعيرين منها فغيبهما في شعب ثم جاء فقال يا محمد هذا فداء ابنتي ، فقال أين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فقال الحارث أشهد أن لا اله الا الله ، وأنك رسول الله ، والله ما اطلع على ذلك الا الله ، قال فأسلم وأسلم معه ابنان له وناس من قومه اهـ.

(٣) ابان بكسر الهمزة وتشديد الموحدة أي وقت كذا وكذا كيوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا .

(٤) أي غضب .

عز وجل ورسوله ، فدعا بسروات قومه فقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتا يرسل الي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله الا من سخطة كانت فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة "١" الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق "٢" فرجع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله ان الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث الى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه اذ استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا

---

(١) يعني عقبة بن أبي معيط الكافر الذي كان من أشد كفار مكة ايذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قتل يوم بدر كافرا . أما ابنه الوليد هذا فهو أخو عثمان بن عفان ، فانه أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه خالد بن عقبة .
قال ابن عبد البر ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت ان قوله عز وجل (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة) نزلت في الوليد بن عقبة ، ثم ذكر نحو حديث الباب ، وهو الذي صلى صلاة الصبح بأهل الكوفة أربع ركعات فقال أزيدكم وكان سكران ، قال ابن عبد البر وخبر صلاته بهم سكران وقوله ازيدكم بعد أن صلى بهم الصبح أربعا مشهور من رواية الثقات من أهل الحديث ، ولما شهدوا عليه بالشرب أمر به عثمان فجلد وعزل من الكوفة واستعمل عليها بعده سعيد بن العاص ، ولما قتل عثمان رضي الله عنه اعتزل الوليد الفتنة وأقام بالرقة الى أن توفي ، وله بها عقب ، روى عنه ثابت بن الحجاج والشعبي وغيرهما ، كذا في تهذيب الأسماء للنووي . ١ . هـ .

(٢) بالتحريك أي خاف لأن القوم لما علموا بقدومه خرجوا للقائه مسرعين فرحين مستبشرين بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله لاسيما وقد كان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية كما يستفاد من رواية ابن جرير ج ٢٦ ص ١٢٥ والبغوي ج ٨ ص ١١ تفسير ابن كثير والبغوي .

هذا الحارث فلما غشيهم "١" قال لهم الى من بعثتم قالوا اليك ، وقال ولم؟ قالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال لا والذى بعث محمدا بالحق مارأيته بتة "٢" ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال منعت الزكاة وأردت قتل رسولى؟ قال لا والذى بعثك بالحق مارأيته ولا أتانى ، وما أقبلت الا حين احتبس على "رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله فنزلت الحجرات (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ـ الى قوله تعالى ـ فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) .. "٣"

---

(١) أى جاءهم وصار معهم فى مكان واحد .

(٢) أى قطعا .

(٣) تخريجه : أورده الهيثمى جـ ٧ ـ ص ١٠٩ وقال رواه احمد والطبرانى الا أنه قال الحارث بن سرار بدل ضرار ورجال أحمد ثقات . ا . هـ .
وأورده الحافظ بن كثير فى تفسيره وعزاه للامام احمد وابن أبى حاتم والطبرانى (زيادة ابن كثير محض حديث محمد بن سابق به غير)
وقال الصواب أنه الحارث بن ضرار والله أعلم . جـ ٨ ص ١٢ تفسير (ابن كثير والبغوى)
وقال ابن كثير ـ وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بنى المصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الامام احمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق وهو الحارث بن ضرار ... والد جويريه أم المؤمنين رضى الله عنها وأورد الواحدى نحوه فى أسباب النزول جـ ١ ـ ص ٢٩٢ وعن الحارث ابن ضرار مثله .

قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية ...

قال احمد : حدثنا عارم حدثنا معتمر قال سمعت أبي "١" يحدث أن أنسا (يعني ابن مالك) قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبي" فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما انطلق اليه النبي صلى الله عليه وسلم قال اليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك "٢" فقال رجل من الأنصار "٣" والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك قال فغضب لعبد الله رجل من قومه قال فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنها نزلت فيهم "٤" وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ...) .

---

(١) أبو معتمر اسمه سلمان بن طرخان .

(٢) جاء في تفسير مقاتل مر النبي صلى الله عليه وسلم على الأنصار وهو راكب حماره يعفور فبال فأمسك ابن ابي بأنفه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم خل للناس سبيل الريح من نتن هذا الحمار .

(٣) قيل هو عبد الله بن رواحه .

(٤) استشكل ابن بطال نزول هذه الآية في هذه القصة من جهة أن المخاصمة وقعت بين من كان معه صلى الله عليه وسلم من الصحابة وبين أصحاب عبد الله ابن أبي" وكانوا حينئذ كفارا (وأجيب) بأن قول أنس بلغنا أنها نزلت فيهم لا يستلزم النزول في ذلك الوقت ، ويؤيده أن نزول آية الحجرات متأخر جدا وقال مغلطاي فيما نقله عنه في المصابيح وفي تفسير ابن عباس وأعان ابن أبي" رجال من قومه وهم مؤمنون فاقتتلوا ، قال وهذا فيه ما يزيل استشكال ابن بطال والله أعلم . ا . هـ . جـ ١٨ ـ ص ٢٨٤ ـ الفتح الرباني في ترتيب مسند احمد ـ عبد الرحمن البنا .

تخريجه (ق ،وغيرهما) وذكر الطبري في تفسيره نحوه جـ ٢٦ ص ١٢٨ رواه البخاري في الصلح عن مسنده جـ ٥ ص ٢٩٧ كما ذكر ابن حجر في فتح الباري استشكال ابن بطال في نزول الآية المذكورة ... ومسلم في المغازي عن محمد بن عبد الأعلى كلاهما عن المعتمر بن سليمان عن أبيه به نحوه . وأورد الواحدي في أسباب النزول ص ٢٦٣ نحو ذلك .

قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) .

نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وذلك أنه كان في أذنه وقر فكان اذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسعوا له حتى يجلس الى جنبه ، فيسمع ما يقول ، فجاء يوما وقد أخذ الناس مجالسهم ، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا ، تفسحوا فقال له رجل : قد أصبت مجلسا فاجلس ، فجلس ثابت مضضها ، فغمز الرجل فقال : من هذا ؟ فقال : أنا فلان ، فقال ثابت ابن فلانة ، وذكر أما كانت له يعير بها في الجاهلية ، فنكس الرجل رأسه استحياء فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقوله تعالى (ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) نزلت في امرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت حقويها بسبنية وهي ثوب أبيض ، وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة انظري ما تجر خلفها كأنه لسان كلب ، فهذا كان سخريتها.

وقال أنس : نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عيرن أم سلمة بالقصر وقال عكرمه عن ابن عباس ان صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ان النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلا قلت : ان أبي هارون ، وان عمي موسى ، وان زوجي محمد (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله تعالى هذه الآية (١)

قوله تعالى (.... ولا تنابزوا بالألقاب) (عن أبي جبيرة بن الضحاك)

سنده (حدثنا اسماعيل ثنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال حدثني أبو جبيرة بن الضحاك)
قال فينا نزلت في بني سلمة (ولا تنابزوا بالألقاب)

---

(١) أسباب النزول ـ أبي الحسن علي بن احمد النيسابوري ـ القاهرة ـ مؤسسة الحلبي وشركاه ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس منا رجل الا وله اسمان أوثلاثة فكان اذا دعى أحد منهم ا باسم من تلك الأسماء قالوا يارسول الله انه يغضب من هذا فنزلت (ولا تنابزوا بالألقاب) وعنه من طريق ثان .

قال حدثنا حفص بن غياث ثنا داود بن أبى هند عن الشعبى عن أبى جبيرة الضحاك الأنصارى عن عمومة له قدم النبى صلى الله عليه وسلم وليس أحد منا الا لـه لقب أو لقبان : قال فكان اذا دعا رجلا بلقبه قلنا يا لرسول الله ان هذا يكرهه هذا ، قال فنزلت (ولا تنابزوا بالألقاب) .

(تخريجه) أخرجه أبو داود والترمذى فى تحفة الأحوذى ص ١٥٣ وقال هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه والحاكم فى مستدركه وصححه وأقره الذهبى . "١" وأورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٦٤ وفى فتح البارى جـ ٨ ـ كتاب التفسير ص ٥٨٩ .

قوله تعالى " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم .... " .

قال ابن عباس : نزلت فى ثابت بن قيس ، وقوله فى الرجل الذى لم يفسح له ابن فلانه ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يا رسول الله ، فقال : انظر فى وجوه القوم ، فنظر فقال : ما رأيت يا ثابت؟ فقال : رأيت أبيض وأحمر وأسود ، قال : فانك لا تفضلهم الا فى الدين والتقوى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال مقاتل : لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا رضى الله عنه ـ حتى أذن على ظهر الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ؟ وقال سهيل بن عمرو : ان يرد الله شيئا يغيره ، وقال أبو سفيان : انى لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء ،فأتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا :فأقروا

---

(١) الفتح الربانى ـ ترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى ـ احمد عبد الرحمن البنا جـ ١٨ ـ ص ٢٨٥ .

فأنزل الله تعالى هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء .

أخبرنا أبوحسان المزكى قال : أخبرنا هارون بن محمد الاستراباذى قال : أخبرنا أبو محمد اسحق بن محمد الخزاعى قال : أخبرنا أبو الوليد الأزرقى قال : حدثنى جدى قال : أخبرنا عبد الجبار بن الورد المكى قال : أخبرنا ابن أبى مليكة قال : لماكان يوم الفتح رقى بلال ظهر الكعبة ، فقال بعض الناس : يا عباد الله أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ؟ فقال بعضهم : ان يسخط الله هذا يغيره ، فأنزل الله تعالى — " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى " .

وقال يزيد بن الشخير : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ببعض الأسواق بالمدينة واذا غلام أسود قائم ينادى عليه بياع فيمن يزيد ، وكان الغلام يقول من اشترانى فعلى شرط ، قيل : ماهو ؟ قال : لا يمنعنى من الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاشتراه رجل على هذا الشرط ، وكان يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند كل صلاة مكتوبة ففقده ذات يوم ،فقال لصاحبه أين الغلام فقال : محموم يا رسول الله ،فقال لأصحابه : قوموا بنا نعوده ،فقاموا معه فعادوه ، فلما كان بعد أيام قال لصاحبه : ماحال الغلام ؟ فقال : يارسول الله الغلام قورب به فقام ودخل عليه وهو فى نزعاته ،فقبض على تلك الحال ،فتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم غسله وتكفينه ودفنه ، فدخل على أصحابه من ذلك أمر عظيم ،فقال المهاجرون : هاجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا فلم ير أحد منا فى حياته ومرضه وموته ما لقى هذا الغلام ،وقالت الأنصار : آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا فآثر علينا عبدا حبشيا فأنزل الله تبارك وتعالى — يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى .....) يعنى أن كلكم بنو أب واحد وامرأة واحدة ، وأراهم فضل التقوى بقوله تعالى " ان اكرمكم عند الله أتقاكم " . ١ . هـ "١"

وقد ذكر القرطبى فى التفسير فى سبب نزول هذه الآية قال :

" ونزلت الآية فى أبى هند ، ذكره أبوداود فى (المراسيل) ، حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدثنا بقية بن الوليد قال : حدثنى الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ،فقالوا

---

(١) أسباب النزول — المصدر المذكور آنفا — ص ٢٦٥ .

لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نزوج بناتنا موالينا "[1]" فأنزل الله عز وجل : " انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا " الآية .

قال الزهري : نزلت في أبي هند خاصة "[2]" .

قوله تعالى " قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم " الآيـــة .

نزلت في أعراب من بني أسد ابن خزيمة قدموا على رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في الســـر وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا اسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالاثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنـــا من الصدقة ، وجعلوا يمنون عليه ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . ا هـ "[3]"

وذكر القرطبي في التفسير قال : قال ابن عباس : نزلت في أعراب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا ، فأعلم الله أن لهم أسماء الاعراب لا أسمـاء المهاجرين .

وقال السدي : نزلت في الاعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزينـــة وجهينة وأسلم وغفار والديل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهـــم ، فلما استنفروا الى المدينة تخلفوا فنزلت .

وبالجملة فالآية خاصة لبعض الاعراب ، لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى .) ا هـ "[4]"

---

(١) من معاني " المولى " : العبد
(٢) الجامع لاحكام القرآن ـ القرطبي ـ أبي عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي جـ ١٦ ـ ص ٣٤١ ـ دار الكتب العربية للنشر والطباعة ـ القاهرة .
(٣) أسباب النزول ـ المصدر المذكور آنفا ـ ص ٢٦٦ .
(٤) القرطبي ـ تفسير ـ المصدر المذكور آنفا ـ جـ ١٦ ـ ص ٣٤٨ .

البـــاب الثالـــث

١ ـ تعريـف عام بالسورة .
٢ ـ ترابط السورة بما قبلها .

أ ـ معنـــى التقديـــم :

١ ـ الأحكام التى تؤخذ من الآية .
٢ ـ ماتوحيـه الآيـــة .

ب ـ حكم رفع الصوت فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم :

١ ـ الآداب التى تؤخذ من الآيات .
٢ ـ حكم ايذاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحكم رفـع الصوت عند قبره الشريف .
٣ ـ ماتوحيـه الآيـات .

تعريف عام بالسورة :

سورة الحجرات مدنية ، وهى تمثل المنهج التربوى المتكامل للمجتمع المثالى الذى رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ينبغى أن يكون عليه المجتمع المسلم فيما بعد من خلق عال ، وتربية نموذجية فريدة أثبتت للعالم على مر العصور أنها الأمة الفريدة التى وجدت حقيقة على وجه هذه الأرض — فنشرت العدل ، وحققت المساواة ، وأخرجت العباد من عبادة العباد الى عبادة رب العباد • وتلمس البشر حرياتهم ، وعرفوا كرامة أنفسهم ، ذلك فى آيات من سورة الحجرات ثمان عشرة آية ، وكلماتها لا تتعدى ثلاثمائة وثلاث وأربعون ، وحروفها ألف وأربعمائة وأربع وسبعون •

وسميت سورة الحجرات لذكر الحجرات فى قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ••••) الآية •

ولو علمنا ما هذه الحجرات التى كان يسكنها أعظم البشر وأفضلهم ، رسول الانسانية جمعاء لأخذنا العبرة بأن من عاش لله فى كل شىء نظر لهذه الدنيا نظرة احتقار وازدراء ، وسعى لما هو أعظم ، ولما هو أبقى ، ولما فيه السعادة الحقيقية • وما كان زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لقلة وجدها وانما كان فى ذلك القدوة العظمى ، ومضرب المثل لكل من يأتى بعده • فلا يجد الفقير من فقره ذلا وصغارا اذا تحقق الايمان فى نفسه ، فيرى أن العزة هى عزة الايمان ، وأن ميزان التفاضل عند الله هو ميزان التقوى وحده • ويجد الأغنياء والحكام من بعده أن الدنيا ليست هى كل شىء ، وليست بالمظاهرة والمفاخرة والتكاثر ، وانما بالعمل الصالح ، وبذلك يشتغلون بما يرضى الله ، ويصلح العباد • وأن السعادة الحقيقية هى باتباع ما أمر الله ورسوله •

وقد كانت حجرة، صلى الله عليه وسلم من الطين وجريد النخل حيث يكاد الداخل أن يمس سقفها بيده• "١"

وهذه السورة نزلت بعد سورة المجادلة ، ونزلت سورة المجادلة

---

(١) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز — محمد بن يعقوب الفيروزابادى •

بعد سورة المنافقون • وقد نزلت سورة المنافقون فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة الحجرات فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك • وترتيبها فى الكتاب العزيز بعد سورة الفتح • والسورة محكمة خالية عن الناسخ والمنسوخ •

وغرض السورة بشكل عام ارشاد المؤمنين الى بعض الآداب فى حق الله والرسول صلى الله عليه وسلم وآداب أخرى مع تضمين حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، وحقائق عن الوجود الانسانى مع مناهج لتكوين الأفراد ، وتنظيم الجماعات ، وقواعد فى التربية والتهذيب ، مع مبادئ التشريع والتوجيه ومعالم كاملة لمجتمع مثالى كريم سليم من أدران الجاهلية ومخلفاتها •

وفى ذلك ترى عظمة التربية التى تتمثل فى توجيهات القرآن والتربية النبوية الحكيمة • ويبرز ذلك فى عناصر أهمها :

١) الأدب مع الله ورسوله
٢) أدب خاص مع الرسول صلى الله عليه وسلم
٣) منهج كامل فى التثبت من الأقوال والأفعال والاستيثاق من مصدرها •
٤) مبدأ عام للاصلاح
٥) آداب نفسية وسلوكية فى المجتمع المسلم
٦) نظافة المشاعر ، كفالة الحرمات ، الصون فى الغيبة والحضرة ، لا اعتماد على الظن ، لا تتبع للعورات ، أمن الناس وحفظ كرامتهم وحرياتهم لا تمس بأدنى مساس •
٧) الفكرة الكاملة عن وحدة الانسانية المختلفة الأجناس مع ميزان واحد يقوم به الجميع مع ابراز أهم شئ فى وجود الكائن البشرى وهى الهيبة الالهية العظمى ، هيبة الايمان "١"

---

(١) انظر فى ظلال القرآن ــ سيد قطب جـ ٢٦ ط ٥
انظر النظم الفنى فى القرآن ــ عبد المتعال الصعيدى ــ الناشر مكتبة الآداب بالجماميز

ترابط السورة بما قبلها :

ولترتيب السورة معنى ملموس ظاهر وبين وذلك لما (قد حصل من المؤمنين فى صلح الحديبية أن اعترضوا على بعض ما جاء فيه ، وأنهم لم يبادروا الى امتثال أمر النبى صلى الله عليه وسلم لهم أن يحلقوا وينحروا ليتحللوا من عمرتهم وذلك من ترك آية التسمية والرسالة ، فذكرت سورة الحجرات عقب سورة الفتح التى ذكر فيها ذلك الصلح ليرشد المؤمنين فيها الى تلك الآداب ، حتى لا يعودوا الى ما وقع منهم من الاعتراض على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن عدم المبادرة الى امتثال أمره) "١" .

كما لا يخفى الترابط والتناسب بين السورتين لكونهما مدنيتين ومشتملتين على أحكام وتلك فيها قتال الكفار وهذه فيها قتال البغاة . وكلا السورتين تضمنت تشريفات له صلى الله عليه وسلم . "٢"

وأن الله تعالى بين محل النبى صلى الله عليه وسلم وعلو درجته ومنزلته بكونه رسوله الذى يظهر دينه ، ووصفه تعالى بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله تعالى فى سورة التوبة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ...) "٣"

وذكر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة ...) سورة الفتح . فوصفهم الله تعالى بالايمان والعمل الصالح . فهذا مما يدل على أنه ربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شىء مما ينبغى أن ينهى عنه فأتت الآية الأولى من سورة الحجرات لتوضح وتبين وتنهى عن عادات كانت عند العرب وذلك بالاشتراك فى الآراء ، وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب "٤"

---

(١) عبد المتعال الصعيدى ـ النظم الفنى فى القرآن ـ ص ٢٩٠ ـ الناشر مكتبة الآداب بالجماميز .

(٢) الآلوسى بتصرف ـ روح المعانى جـ ٢٦ ـ ١٣١ ـ ادارة الطباعة المنيرية

(٣) التوبة آيه ١٢٨ .

(٤) أبو حيان ـ البحر المحيط جـ ٨ ـ ١٠٥ ـ بتصرف ـ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر .

فكان القول والخطاب : لا تتركوا من احترام الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا لا بالفعل ولا بالقول ، ولا تغتروا برأفته ، وانظروا الى رفعة درجته .

فهذا التوجيه والخطاب لأمة وصفهم الله تعالى بكونهم أشداء على الكفار رحماء فيمابينهم ، راكعين ساجدين نظرا لجانب الله تعالى . وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء فى الكتب المتقدمة بقوله تعالى (ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل) . فان الملك العظيم لا يذكر أحدا فى غيبته الا اذا كان عنده محترما ، ووعدهم بالأجر العظيم . "١"

وقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس ...) آل عمران : ١١٠ .
(أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله تعالى الآية السابقة قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو شاء الله تعالى لقال أنتم ، فكنا كلنا ولكن قال : " كنتم " خاصة فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن صنع مثل صنيعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وعند ابن جرير عن قتادة رضى الله عنه قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ هذه الآية " كنتم خير أمة أخرجت للناس " .
ثم قال : يا أيها الناس : من سره أن يكون من تلكم الآية فليؤد شرط الله منها : كذا فى كنز العمال (ج ١ ص ٢٣٨) .

وأخرج أبو نعيم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال "٢" : من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . كانوا خير هذه الأمة أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ونقل دينه ، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم ، فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا على الهدى المستقيم ، والله رب الكعبة ، كذا فى الحلية (ج ١ ص ٣٠٥) "٣"

---

(١) الفخر الرازى تفسير ج ٢٨ ـ ص ١١٠ ط . الأولى التزام عبد الرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر .
(٢) محمد يوسف الكاندهلوى ـ حياة الصحابة ـ ج ١ ـ ص ٤٧ دار القلم دمشق .
(٣) المصدر نفسه .

فقال تعالى فى هذه السورة وهم على ما هم عليه من المكانة موجبا ومربيا لهم رضى الله عنهم وذلك لكى لا يقعوا فيما يوجب انحطاط درجتهم ، واحباط حسناتهم • قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله •••)

وورد فى أسباب النزول وجوه : (وهو ارشاد عام ويشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل اثبات وتقدم واستبداد بالأمر واقدام على فعل غير ضرورى من غير مشاورة) "١" •

---

(١) الفخر الرازى جـ ٢٨ ــ ١١٠ ــ ط • الأولى التزام عبد الرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر •

المعنى اللغوى للتقديم :

وفى قاموس لسان العرب بمادة ـ قدم ـ وتقدّم : كقدّم . وقدّم واستقدم : تقدّم . التهذيب : ويقال ، قدم فلان فلانا اذا تقدّمه . الجوهرى : قدم ، بالفتح ، يقدم قدوما أى : تقدم ومنه قوله تعالى : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ،) أى : يتقدّمهم الى النار ومصدره ـ القدم ـ يقال : قدم يقدم وتقدّم يتقدّم وأقدم يقدم ، واستقدم يستقدم بمعنى واحد .

وفى التنزيل العزيز : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) .

وقرئ لا تقدّموا ..... ، قال الزجاج : معناه اذا أمرتم بأمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذى أمرتم أن تفعلوه فيه ، .....

وقال الزجاج فى قوله تعالى ولقد علمنا المستقدمين منكم ؛ فى طاعة الله والمستأخرين : فيهما ا . هـ .

والقدمه من الغنم : التى تكون أمام الغنم فى الرعى .

وقوله تعالى : ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . يعنى من يتقدم من الناس على صاحبه فى الموت ، ومن يتأخر منهم فيه ، وقيل : علمنا المستقدمين من الأمم وعلمنا المستأخرين .

وقال ثعلب : معناه من يأتى منكم أولا الى المسجد ومن يأتى متأخرا . وقدّم بين يديه أى : تقدّم . وقوله عز وجل : لا تقدّموا بين يدى الله ورسوله ، ولا تقدّموا ، فسره ثعلب فقال : من قرأ تقدّموا فمعناه لا تقدموا كلاما قبل كلامه ، ومن قرأ لا تقدّموا فمعناه لا تقدموا قبله ، وقال الزجاج تقدّموا وتقدّموا بمعنى . ا . هـ .

(وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرمى " لا تقدّموا " بفتح التاء والدال من التقدم . وقرأ الباقون " تقدّموا " بضم التاء وكسر الدال من التقديم ، ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله

وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا • ومن قدّم قولـــه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعالى ،لأن الرسول صلى الله عليه وسلم انما يأمر عن أمر الله عز وجل)" ١"

وذكر الفخر الرازى عند قوله تعالى (لا تقدموا) قال : (يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون من التقديم الذى هو متعد ، وعلى هذا ففيه وجهان :

أولا : ترك مفعوله برأسه كما فى قوله تعالى (يحيى ويميت) وقول القائل فلان يعطى ويمنع ، ولا يريد بهما اعطاء شىء معين ولا منع شىء معين ، وانما يريد بهما أن له منعا واعطـاء كذلك هنا ، كأنه يقول لا ينبغى أن يصدر منكم تقديـــم •

ثانيا : أن يكون المفعول الفعل أو الأمر كأنه يقول (لا تقدموا)بمعنى فعلا (بين يدى الله ورسوله) أو لا تقدموا أمرا)" ٢"

وذلك لأن ما يقتضيه حالهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس يمنع منهم وقوع أى أمر مناف ، بل ما ينبغى منهم أن يكونوا على أعلى مستـوى من الأدب والخلق الكريم ، وهذا ما أراده الله لهم وخاصة فى مقـام النبوة ، وذلك لما تتطلبه من تعظيم واحترام واجلال وتقدير •

الثانى : أن يكون المراد (لا تقدموا) بمعنى لا تتقدموا • وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لا تجعلوا لأنفسكم تقدمًا عند النبى صلى الله عليه وسلم • يقال فلان تقدم من بين النـــاس اذا ارتفع أمره وعلا شأنه ، والسبب فيه أن من ارتفع يكون متقدما فى الدخول فى الأمور العظام ، وفى الذكر عند ذكر الكرام ، وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعديا أو لازما لا يتعدى الى ما يتعدى اليـــه التقديم فى قولنا قدمت زيدا فالمعنى واحد ••••فتقديره لا تقدموا أنفسكم فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم أى لا تجعلوا لأنفسكـــم تقدما ورأيا عنده ، ولا نقول بأن المراد لا تقدموا أمرا وفعلا ،وحينئذ

---

(١) القرطبى ــ أحكام القرآن ــ جـ ١٦ ــ ٣٠٠ ــ دار الكتاب العربـــى للطباعة والنشر القاهرة ــ ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م •

(٢) الفخر الرازى ــ تفسير جـ ٢٨ ــ ١١١ ــ ط • الأولى التزام ــ عبد الرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر •

تتحد القراءتان فى المعنى ، وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال ، وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال . ١ . هـ "١"

الأحكام التى تؤخذ من الآية :

قال القاضى : اذا قلنا انها نزلت فى تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ، لأن كل عبادة موقتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه كالصلاة والصوم والحج ، وذلك بين . الا أن العلماء اختلفوا فى الزكاة ، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنى مفهوم وهو سد خلة الفقير ، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين ، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر ، فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين . فان جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها . وان جاء رأس العام وقد تغير النصاب تبين أنها صدقة تطوع .

وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة ، وكأنه طرد الأصل فى العبادات فرأى أنها احدى دعائم الاسلام فوفاها حقها فى النظام وحسن الترتيب . ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز ، لأنه معفو عنه فى الشرع بخلاف الكثير .

وما قاله أشهب أصح ، فان مفارقة اليسير الكثير فى أصول الشريعة صحيح ، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير . فأما فى مسألتنا فاليوم فيه كالشهر ، والشهر كالسنة . فاما تقديم كلى كما قاله أبو حنيفة والشافعى (فى كتاب الأم ــ ص ٢٣ ــ جـ ٢) واما حفظ العبادة على ميقاتها كما قال اشهب .

وكذلك يؤخذ من الآية الكريمة التى هى ــ (أصل فى ترك التعرض لأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وايجاب اتباعه ، والاقتداء به ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه : (مروا أبا بكر فيصل بالناس) فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : قولى له ان أبا بكر رجل أسيف "٢" وانه متى

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢٨ ــ ١١١ ــ

(٢) أسيف : سريع البكاء والخوف . وقيل هو الرفيق .

يقم مقامك لا يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس . فقال صلى الله عليه وسلم : انكن لأنتن صواحب يوسف "[1] مروا أبا بكر فليصل بالناس . فمعنى قوله صواحب يوسف ، الفتنة بالرد عن الجائز الى غير الجائز .

وربما احتج نفات القياس بهذه الآية ، وهو باطل منهم ، فان ما قامت دلالته فليس في فعله تقديم بين يديه . وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع ، فليس اذا تقدم بين يديه . " واتقوا الله " يعني في التقدم المنهى عنه (ان الله سميع) لقولكم (عليم) بفعلكم) . "[2]

وحديث معاذ رضى الله عنه يبين تقديم الكتاب والسنة على القياس . حيث قال له النبى صلى الله عليه وسلم حين بعثه الى اليمن " بم تحكم ؟ " قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم " فان لم تجد " قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال صلى الله عليه وسلم " فان لم تجد "؟ قال رضى الله عنه أجتهد رأيى فضرب في صدره وقال " الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم " وقد رواه احمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه . فالغرض منه أنه آخر رأيه ونظره واجتهاده الى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفى عنه ، نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه ، وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضى الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم .) "[3]

---

(١) صواحب يوسف : قال القسطلانى (أى مثلهن فى اظهار خلاف مافى الباطن

(٢) القرطبى أحكام القرآن جـ ١٦ ص ٣٠٠ ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م .

(٣) ابن كثير جـ ٨ ـ ص ٣ .

ونسوق هنا أدلة ثبوت القياس من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وأفعالهم وبالمعقول مع الاكتفاء بدليل واحد فى كل من الكتاب والسنة ، ومن أراد الاستزادة فليرجع الى كتب الأصول ، وما كتب حديثا وقديما فى هذا الباب والله الموفق .

١ ـ قول الله تعالى فى سورة النساء : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ") .

ووجه الاستدلال بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين ان تنازعوا واختلفوا فى شىء ليس لله ولا لرسوله ولا أولى الأمر منهم فيه حكم أن يردوه الى الله والى الرسول ، وردّه أى ارجاعه الى الله والى الرسول باطلاقه ، يشمل كل مايصدق عليه أنه رد اليهما . فرده الى قواعد الشرع الكلية رد الى الله ورسوله ، ورد ما لا نص فيه الى مافيه نص ، والحكم عليه بحكم النص لتساوى الواقعتين فى العلة التى بنى عليها الحكم هو رد المتنازع فيه الى الله ورسوله ، لأنه ما حكم فيه بحكم من عنده وانما حكم فيه بما حكم النص فى نظيره "

٢ ـ الدليل من السنة ما تقدم وهو حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه . وهناك أحاديث كثيرة تفيد ذلك .

٣ ـ الدليل من أقوال الصحابة رضى الله عنهم و .....

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عهده الى أبى موسى الأشعرى " ثم الفهم الفهم فيما أدلى اليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة ، ثم قايس بين الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق " .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : " يعرف الحق بالمقايسة عند ذوى الألباب " .....

٤ ـ وأما المعقول فأظهر أدلتهم على ذلك :

١ ـ أن الله سبحانه ما شرع حكما الا لمصلحة ، وأن مصالح العباد هى الغاية المقصودة من تشريع الأحكام ، فاذا ساوت الواقعة المسكوت عنها الواقعة المنصوص عليها فى علة الحكم ، التى هى مظنة المصلحة قضت الحكمة والعدالة أن تساويها فى الحكم تحقيقا للمصلحة التى هى مقصود الشارع من التشريع ، ولا يتفق وعدل الله وحكمته أن يحرم الخمر لاسكارها محافظة على عقول عباده ، ويبيح نبيذا آخر فيه خاصية الخمر ، وهى الاسكار ، لأن مآل هذا المحافظة على العقول من مسكر وتركها عرضة للذهاب بمسكر آخر) "١"

ونذكر ما قاله البخارى فى وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة :

قال البخارى : حدثنا الحميدى حدثنا سفيان عن مسعر وغيره عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال " قال رجل من اليهود لعمر : يا أمير المؤمنين لو أن علينا نزلت هذه الآية " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " لاتخذنا ذلك اليوم عيدا . فقال عمر : أنى لأعلم أى يوم نزلت هذه الآية ، نزلت يوم عرفه فى يوم جمعه " سمع سفيان مسعرا ، ومسعر قيسا ، وقيس طارقا . قال ابن حجر فى فتح البارى " الاعتصام " افتعال من العصمة والمراد امتثال قوله تعالى " واعتصموا بحبل الله جميعا " الآية . قال الكرمانى هذه الترجمة منتزعة من قوله تعالى " واعتصموا بحبل الله جميعا " لأن المراد بالحبل : الكتاب والسنة على سبيل الاستعارة ، والجامع كونهما سببا للمقصود وهو الثواب والنجاة من العذاب ، كما أن الحبل سبب لحصول المقصود به من السقى وغيره . والمراد " بالكتاب " القرآن المتعبد بتلاوته و " بالسنة " ماجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله وتقريره وما هم بفعله .

والسنة فى أصل اللغة الطريقة وفى اصطلاح الأصوليين والمحدثين ما تقدم ، وفى اصطلاح بعض الفقهاء ما يرادف المستحب ، قال ابن بطال : لا عصمة لأحد الا فى كتاب الله أو فى سنة رسوله أو اجماع العلماء على معنى فى أحدهما .

---

(١) مصادر التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه ـ عبد الوهاب خلاف ص ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ، دار القلم ـ الكويت .

قوله (سمع سفيان مسعرا ومسعر قيسا وقيس طارقا) هو كلام البخارى يشير الى أن العنعنة المذكورة فى هذا السند محمولة عنده على السماع لاطلاعه على سماع كل منهم من شيخه .

وقوله سبحانه (اليوم أكملت لكم دينكم .....) الآية ظاهره يدل على أن أمور الدين كملت عنده هذه المقالة وهى قبل موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنحو ثمانين يوما ، فعلى هذا لم يتنزل بعد ذلك من الأحكام شىء وفيه نظر ، وقد ذهب جماعة الى أن المراد بالاكمال ما يتعلق بأصول الاركان لا ما يتفرع عنها ، ومن ثم لم يكن فيها متمسك لمفكرى القياس ، ويمكن دفع حجتهم على تقدير تسليم الاول بأن استعمال القياس فى الحوادث متلقى من أمر الكتاب ، ولو لم يكن الا عموم قوله تعالى " وما آتاكم الرسول فخذوه " وقد ورد أمره بالقياس وتقريره عليه فاندرج فى عموم ما وصف بالكمال ، ونقل ابن التين عن الداودى أنه قال فى قوله تعالى " وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم " قال أنزل الله سبحانه وتعالى كثيرا من الأمور مجملا ، ففسر نبيه ما احتيج اليه فى وقته وما لم يقع فى وقته وكل تفسيره الى العلماء بقوله تعالى (ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)[1] " اهـ .

ماتوجيه الآية :

وتبدأ السورة وتصدر بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن مافى حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، وتصفهم بالايمان لتنشيطهم والايذان بأنه داع للمحافظة عليه ، ورادع عن الاخلال به "[1] قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم) .

ذلك النداء الايمانى الحبيب الى النفوس ، الذى هز أحاسيس ومشاعر القلوب المؤمنة بالله والمؤمنة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤمنة بالغيب ـ لتشعر بالرابطة التى تربطهم بالله ايمانا به وحده

---

(١) فتح البارى ـ ابن حجر ـ ج ١٣ ـ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

وأنه هو خالقهم وهو رازقهم ، وهو مصدر الأمر والنهى عندهم ، لا أمر الا اليه ، ولا حكم ولا سلطان الا بما حكم ، ولا اختيار لهم فى منهج حياتهم وتدبير أمور وسلطان حكمهم الا اليه ، له الحكم واليه المصير • فهم يتلقون عنه ويخضعون اليه بكل اذعان وخشية ورهبة ورغبة منه واليه ـ لأنهم عبيده على وجه هذه الأرض ليطبقوا حكمه ، ويقيموا شريعته ، ويرفعوا لواء الحق فوق العالمين لتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والذلة والمهانة والصغار للكافرين ـ والمشركين والملاحدة والزنادقة المارقين ـ ولكن المنافقين لا يعلمون ـ وتربطهم برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المبلغ عن الله أمره وشريعته ، والمنفذ لحكمه فهم عون لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منفذين لأمره مطيعون له ، ساعون فى كل ما يرضيه ـ لأن رضاء الله تعالى وطاعته فى رضاء وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منقادين له ينتظرون أمره فى احترام وتقدير واجلال وتعظيم فلا رأى لهم قبل رأيه ، ولا كلمة لهم مع كلام الله ورسوله ، ولا حكم ولا اقتراح ولا قضاء فى أمر قبل أن يرجعوا الى حكم الله ورسوله فيه • وبذلك يتمثل فى الأدب النفسى مع الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم يتلقون وينفذون ، وفى هذا منهج وأصل من أصول التشريع والعمل ـ وهذا نابع من تقوى الله التى ملكت قلوبهم ، ومن الشعور بأن الله تعالى هو السميع العليم •

وهكذا أتى النداء الربانى ـ أتى النداء الحبيب من الله لعباده الذين علم سرائرهم فخاطبهم بخطاب الايمان الموافق للظاهر منهم ، وما علمه من سرهم وصدقهم ـ فقد صدر من البعض أن قالوا ـ لو أنزل فى كذا وكذا ، لو صح كذا كما قال قتادة ، فكره الله ذلك منهم فكان ذلك التأديب الربانى للمجتمع المثالى وللجماعة المؤمنة ـ وكان الخطاب للمجموع وبصيغة الجمع مع أن الأمر كان من أفراد ، وهذا نوع من أنواع التربية القرآنية العالية ـ وخطاب عام ليكون حكما عاما وقاعدة عامة ، وذلك ليكون المجتمع بأكمله نظيفا • وهذا النوع من التربية أعلى ما عرفت البشرية وتعرف لما فيه من الأدب الرفيع من الحفاظ على كرامة الانسان وحالته النفسية ، وليحافظ على شعوره بأنه انسان مكرم • وهذا ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ اذ كان يقول ما بال أقوام ـ من فعل كذا ـ من أكل لحم جزور • • • • وذلك ليحصل المقصود ـ وفى هذا التوجيه

---

(١) الآلوسى وروح المعانى جـ ٢٦ ـ ١٣١ ـ ادارة الطباعة المنيرية •

مافيه من الحكمة والتأثير على النفوس فى تغيير واقعها المغاير لما يريده الموجه والمربـــى .

وفى قبول أمر الله ورسوله والاذعان والاستسلام والخضوع لهما أمر بدهى فطرى تقبله العقول السليمة ، والنفوس الكريمة ، وذلك لما فيه من الحكمـــة البالغة ، لانه لم يكن ولا يكون فى عرف البشر وعلم الناس أن يكون للأداة المصنوعة تدخل مع صانعها فى تدبير أمورها واختيارها ما تريد من سيرها ومنهجها وللـه المثل الاعلى . فالصانع للشىء أدرى بأسراره ومحتوياته ، وما يقوم عليه من ضعف ومن أمور تصلح حالها وتجعلها أحسن وأنجح آلة لا يماثلها شىء . فلذلك هـو الذى يديرها ، ويسعى فى اصلاحها ، والاضافة اليها مما يجعلها أجود وأفضل فلا تدخل للآلة فى عمل صانعها . وهذا من أمر الدنيا وفى شىء مكتسب .

فكيف لبشر مخلوق لا يملك من أمره شيئا ، ولا يدرى بحقيقة ما يصلـح حاله ، حقيقة لولا توجيه الله اليه ، ولولا عناية الله وتأييده له وما خلقه عليـه من الخلقة الكريمة ـ قال تعالى ـ ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويـم وقال تعالى ـ ولقد كرمنا بنى آدم ـ فما كان لمخلوق كرمه الله وخلقه فـى أحسن صورة ، وأحسن اقامة أن يتمرد على خالقه فلا يقبل تعاليمه ، ولا يعترف بأحكامه التى فيها صلاحه ، لا يكون ذلك الرفض الا مع السفه والحمق ، ولذلـك نرى ونحس كيف تعيش البشرية الآن فى حماقة حمقاء ، وسفه وتخبط وضلال ـ وكل ذلك لانها ابتعدت عن منهج الله وشريعة الله ـ ولا صلاح للبشرية جمعاء الا بالعودة لمنهاج ربها وخالقها ـ ولا نقول هذا الكلام للخطابة ولحسـن العبارة ، وانما ما يظهره الواقع الأليم للبشرية عامة ـ وللأمة الاسلامية خاصة ـ فهل من مكابر فى ذلك ـ فالشاهد منه وعليه ـ فلا يحتاج ضوء النهار الـى برهان على وجوده ، ولا يحتاج شعاع الشمس المشرق الى اثبات . فاشراقـه دليل ساطع وحجة بالغة على وجوده .

حكم رفع الصوت بحضرة النبى صلى الله عليه وسلـــم

الآداب التي تؤخذ من الآية :

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النبى ٠٠٠٠٠) ٠

نرى فى هذه الآية أدبا شان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ـ فوق صوته ، كما فيه أمر بتعظيم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوقيره ، وهو نظير قوله تعالى (لتؤمنـــوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) ٠٠٠٠٠٠٠ وذلك لما كان فى رفع الصوت علـى الانسان فى كلامه ضرب من ترك المهابة والجرأة ، نهى الله عنه ، اذ كنا مأمورين بتعظيمه وتوقيره وتهييبه ٠

ثم أتى التأكيد للأمر ، والتوضيح له ،وفى حدود الكلام وصفته ، فـــى قوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض٠٠٠)ولم يكن النهى عن رفع الصوت فقط ، وانما كان النهى عن أن تكون مخاطبتنا له كمخاطبـــــة بعضنا لبعض ، بل على ضرب من التعظيم نخالف به مخاطبات الناس فيمـــا بينهم ، وهو كقوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا)٠

وهذه الآيات وان كانت نازلة فى تعظيم النبى صلـى الله عليه وسلـــم وايجاب الفرق بينه وبين الأمة ، فانه تأديب لنا فيمن يلزمنا تعظيمه من والـد وعالم وناسك وقائم بأمر الدين وذى سن وصلاح ونحو ذلك ، اذ تعظيمـــــه بهذا الضرب من التعظيم فى ترك رفع الصوت عليه وترك الجهر عليه والتمييـــز بينه وبين غيره ممن ليس فى حاله ، وفى النهى عن ندائه من وراء البـــــاب ، والمخاطبة له بلفظ الأمر ـ لأن الله تعالى ذم هؤلاء القوم بندائهم اياه مـن وراء الحجرة ، وبمخاطبته بلفظ الأمر فى قولهم اخرج الينا "(١)"٠

وذكر القرطبى فى الأحكام عند قوله تعالى (ولا تجهروا له با لقـول) قال : أى لا تخاطبوه : يا محمد ، ويا أحمد ٠ ولكن : يا نبى اللـــــه ، ويارسول الله ، توقيرا له ٠

---

(١) الجصاص ـ أحكام القرآن جـ ٣ ـ ٣٩٧ ـ بتصرف قليل ٠

وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبى صلى الله عليه وسلم ليقتدى بهم ضعفة المسلمين ، فنهى المسلمون عن ذلك .

وقيل : (لا تجهروا له) أى لا تجهروا عليه كما يقال : سقط لفيه أى على فيه . " كجهر بعضكم لبعض " الكاف كاف التشبيه فى محل النصب ، أى لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض . وفى هذا دليل (على) أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم الا أن يكلموه بالهمس والمخافته ، وانما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوه وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وان جلت رتبتها . (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) أى من أجل أن تحبط ، أى تبطل ، هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : أى لئلا تحبط أعمالكم . "١"

وذكر نحوه الطبرى فى تفسيره الجزء السادس والعشرين صفحة ١١٧ ـ وما بعدها ١ . هـ .

وذكر الآلوسى فى روح المعانى عند قوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) يقول : (تعليل لما قبله من النهيين على طريق التنازع بتقدير مضاف أى كراهة أن تحبط أعمالكم . والمعنى أنى أنهاكم عما ذكر لكراهة حبوط أعمالكم بارتكابه أو تعليل للمنهى عنه وهو الرفع والجهر بتقدير اللام أى لأن تحبط والمعنى فعلكم ما ذكر لأجل الحبوط منهى عنه ولا م التعليل المقدرة مستعارة للعاقبة التى يؤدى اليها الفعل لأن الرفع والجهر ليس لأجل الحبوط لكنهما يؤديان اليه ..... وفرق بينهما بما حاصله أن الفعل المنهى معلل فى الأول ، والفعل المعلل منهى فى الثانى ، وأيهما كان فمرجع المعنى الى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص الاداء الى حبوط العمل ، وقراءة ابن مسعود وزيد بن على فتحبط بالفاء أظهر فى التنصيص على أدائه الى الاحباط لأن مابعد الفاء لايكون الا مسببا عما قبلها . وقوله تعالى (وأنتم لا تشعرون) حال من فاعل تحبط ومفعول تشعرون محذوف بقرينة ماقبله أى والحال أنتم لا تشعرون أنها محبطة وظاهر الآية مشعر بأن الذنوب مطلقا قد تحبط الأعمال الصالحة . ومذهب

---

(١) القرطبى ـ أحكام القرآن ـ جـ ١٦ ـ ٣٠٦ ـ دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧م .

أهل السنة أن المحبط منها الكفر لا غير والأول مذهب المعتزلة • ولذا قال الزمخشري قد دلت الآية على أمرين هائلين أحدهما أن فيما يرتكب من الآثام ما يحبط عمل المؤمن ، والثاني أن في أعماله ما لا يدري أنه محبط ، ولعله عند الله تعالى محبط •

وأجاب عن ذلك ابن المنير عليه الرحمة : بأن المراد من الآية النهي عن رفع الصوت على الاطلاق ، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من ايذاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقاعدة المختارة أن ايذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق • فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء وجد هذا المعنى أو لا ، حماية للذريعة ، وحسما للمادة ، ثم لما كان هذا المنهي عنه منقسما الى ما يبلغ مبلغ الكفر وهو المؤذى له عليه الصلاة والسلام ، والى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقا خوف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الأذى ، اذ لا دليل ظاهر يميزه وان كان ، فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان ، والى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الاشارة بقوله سبحانه وتعالى (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) • والا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله سبحانه وتعالى (وأنتم لا تشعرون) موقع ،اذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت مؤذيا فيكون كفرا محبطا قطعا وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعا ، فعلى كلا حاليه الاحباط به محقق اذن فلا موقع لادعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقا • ١ • هـ •

وهذا مذهب غير صحيح لما هو ظاهر فيه من مخالفته لسماحة الشريعة وحكمة التشريع ، وأن الأمر في التكليف يقوم على قدر الطاقة والتحمل ـ وما لم يقصد بذاته لم يكن فيه حرج • ثم قال ابن المنير عليه الرحمة : وهذا التقدير يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة • احداهما : أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الأذى وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة ، حتى أن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه ، فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الاجلال والاعظام •

ثانيهما : أن ايذاء النبي صلى الله عليه وسلم كفر وهذا ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفرا ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند الله تعالى وأكبر • ١ • هـ •

حكم ايذاء النبي صلى الله عليه وسلم :

أن ايذاء النبي صلى الله عليه وسلم جريمة وهذا مما لا ينبغي لمسلم أن يفعله أو يفكر فيه أو يخطر له على بال • ومع ذلك ان وقع ذلك منه فانه يكون قد اقترف بذلك اثما وجرما يستحق عليه العقاب •

وبالنسبة لهذه الجريمة التي تؤدي بصاحبها الى الردة عن الاسلام يتساءل : هل للمرتد في هذه الحالة توبة ترفع عنه العقاب ؟

قبل أن نتعرض للحكم على نفس هذه الواقعة ننقل ماقيل حول التوبة من المعصية أو الجريمة بعد وقوعها ، وهل لها أثر في العقاب ؟

(يقول ابن القيم في ذلك : " ان حقوق العباد لا تسقط بالتوبة باجماع الفقهاء ، وذلك لأن أساس التوبة أولا هو أداء ما عليه من حق للناس ، وأما حقوق الله تعالى ، وهي الحدود ، فانها لا تسقط بالتوبة اذا كانت التوبة بعد القدرة عليه والتمكن منه • ويقول في ذلك أيضا رضي الله عنه : " الحدود لا تسقط بالتوبة بعد القدرة اتفاقا " (١)

يقول أبو زهرة " وأما اذا كانت التوبة قبل القدرة عليه ، فان ذلك موضع خلاف طويل ، وابن القيم يرجح المذهب الحنبلي والشافعي ، اذ يقرر أنه لا عقوبة اذا كانت التوبة قبل القدرة عليه ، ويعتبره ابن القيم الاعتراف حيث لا دليل سواه ، بل الصلاة توبة • وبـ

ويقول ـ ابن القيم ـ في ذلك " اذا كان الله تعالى ، لا يعذب تائبا فهكذا الحدود لا تقام على تائب ، وقد نص الله سبحانه وتعالى على سقوط الحد عن المحاربين بالتوبة قبل القدرة عليهم ، مع عظيم جرمهم ، وذلك تنبيه على سقوط ما دون الحرابة بالتوبة الصحيحة بطريق الأولى • (٢)

---

(١) اعلام الموقعين جـ ٣ ص ١١٦ طبع الدمشقي ـ عن كتاب أبو زهرة ـ الجريمة والعقوبة في الفقه الاسلامي • ص ٣٨٧ ـ طبع دار الفكر العربي •
(٢) المصدر نفسه

وأما فيما يتعلق فى ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم فقد ذكر فى شرح مختصر خليل • " وان سب نبيا أو ملكا أو عرّض أو لعنة أو عابه أو قذفه ، أو استخف بحقه أو غير صفته أو ألحق به نقصا وان فى بدنه أو خصلته أو غض من مرتبته أو وفور علمه أو زهده أو أضاف له مالا يجوز عليه • أو نسب اليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم أو قيل له بحق رسول الله فلعن وقال أردت العقرب قتل ولم يستتب حدا الا أن يسلم الكافر • • • • " •

وفى الشرح عند قوله " أو استخف بحقه " قال الشارح باتيانه بما لا يقتضى تعظيمه تصريحا أو تلويحا • • • " ١ • هـ

وهذا ما نريد التأكيد عليه لصلته بموضوعنا • وقد بين الشارح الحكم عند قوله " قتل ولم يستتب حدا " ومحل كون قتله حدا لا كفرا اذا تاب أو أنكر ما شهد به عليه ولم يكن سبه كفرا والا فهو كافر • ١ • هـ

قال البنانى ماذكره المصنف من قوله وان سب الى آخر الباب زيادة على ابن الحاجب لخصه من الشفا ولو اختصره جملة لكفاه قوله وان تنقص معصوما وان بتعريض أو باستخفاف بحقه قتل واستثنى من قوله قتل فى كل حال • " " ١ "

وذكر صاحب الفواكه الدوانى على رسالة ابن أبى زيد القيروانى بعد ذكر ما تقدم من الكلام المنقول عن جواهر الاكليل • قال صاحب الفواكه الدوانى عند شرح (قتل) ــ أى : " حدا لأن قتله لازدرائه بحق النبى أو الملك لا لأنه كافر حيث تاب بعد الاطلاع عليه أو أنكر ما شهد به عليه ويستعجل بقتله " ولا تقبل توبته " سواء تاب بعد الاطلاع عليه أو جاء تائبا من قبل نفسه قبل الاطلاع عليه لأنه حد وجب ، والحدود تجب اقامتها بعد ثبوت موجبها ولو تاب المستحق لها كالزانى والشارب والقاتل والسارق سوى المحارب فان حد الحرابة يسقط عنه بالاتيان للامام طائعا أو تركه ما هو عليه • فالحاصل أن الساب شبيه بالزنديق والزنديق لا تعرف له توبه بعد الاطلاع عليه •

---

(١) جواهر الاكليل شرح مختصر خليل ــ ج ٢ ــ ص• ٢٨٠ ــ ٢٨١ ــ شرح الشيخ (صالح عبد السميع الآبى الأزهرى) دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان •

فان قيل مقتضى جعله كالزنديق أن تقبل توبته اذا جاء تائبـــا قبل ظهورنا عليه مع أنها لا تقبل مطلقا ، فالجواب أن يقال السب تعلق بـه حق آدمى والزنديق الحق متعلق بالله وحق الآدمى يشاحح فيه وأيضـــا الأصل فى الزواجر عدم سقوطها بالتوبة • "١"

وخلاصة قول الشافعى رضى الله عنه كما ورد فى كتاب الأم بأن المرتـد يستتاب ، فان تاب وأظهر الايمان حقن ذلك دمه وحكم له حكـــم الاسلام • "٢"

وطالما أن المرتد فى ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم ألحق بالزنديق فقد قال صاحب كتاب " رحمة الامة فى اختلاف الائمة "

" واتفقوا على أن الزنديق وهو الذى يسر الكفر ويظهر الاسلام يقتل • ثـم اختلفوا فى قبول توبته اذا تاب • قال أبو حنيفة فى أظهر روايتيه وهو الأصح من خمسة أوجه لأصحاب الشافعى تقبل توبته : وقال مالك وأحمد يقتـــل ولا يستتاب •

ويروى عن أبى حنيفة مثل ذلك • ا ـ • هـ "٣"

وهناك تفريعات يرجع اليها فى كتب الفقه والله الموفق • وأما خلاصة القول والصواب هو ماقرره صاحب كتاب الفواكه الدوانى وهو قول المالكية فـى ذلك • وهذا فيما يتعلق بحكم من استخف أو آذى النبى صلى الله عليه وسلم•

---

(١) الفواكه الدوانى على رسالة ابن أبى زيد القيروانى ـ الشيخ احمـد ابن غنيم بن سالم بن مهنا النفراوى المالكى ـ جـ ٢ ـ ص• ٢٢ ـ ٢٢١ ـ دار الفكر ـ بيروت •
ينظر فيه لم أراد الاستزادة فى ذلك •

(٢) ينظر كتاب الأم للشافعى ـ محمد بن ادريس الشافعى ـ جـ ٦ ـ ص١٥٨ ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان •

(٣) رحمة الامة فى اختلاف الائمة ـ أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمـن الدمشقى العثمانى الشافعى ـ من علماء القرن الثامن الهجرى • ـ ص• ٢٧٠ ـ مصطفى البابى الحلبى ـ توزيع ـ مكتبة العلم بمكـــة المكرمـــة •

أما بالنسبة لأحكام الردة الأخرى • وأذكر منها على سبيل المثال : الملاحدة في مجتمع مسلم ودولة ملحدة •

فهؤلاء ينقسم الحكم فيهم الى قسمين :

أولا : من أظهر ايذاءه للمسلمين وعدائه للاسلام ولنبي الاسلام فحكمه كما سبق الا أن يعود للاسلام من قبل أن يتمكن منه ويعلن توبته كما أعلن إلحاده ، ويتبرأ علنا من كل قول أو فعل قام به مناف للاسلام ، وتحسن توبته في حال تمكن المسلمين من الحكم •

ثانيا : من ارتد وظهر ايذاؤه للاسلام والمسلمين ولم يتب حتى تمكن المسلمون منه فأعلن توبته ، فهنا لا تقبل توبته ويقتل •

كما فعل وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقتل أناس ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، وذلك لما عرف منهم من العداء والايذاء للاسلام والمسلمين • والله أعلم •

وحاصل الجواب أنه لا دليل في الآية على ماذهب اليه الزمخشري لأنه قد يؤدي الى الاحباط اذا كان على وجه الايذاء أو الاستهانة فنهاهم عز وجل عنه وعلله بأنه قد يحبط وهم لا يشعرون • وقيل يمكن نظرا للمقام أن ينزل اذا هم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برفع الصوت منزلة الكفر تغليظا اجلالا لمجلسه صلوات الله تعالى عليه وسلامه ثم يرتب عليه ما يرتب على الكفر الحقيقي من الاحباط)• • • • •

ثم ان من الجهر مالم يتناوله النهي بالاتفاق وهو ما كان في حرب أو مجادلة معاند أو ارهاب عدو أو ما أشبه ذلك مما لا يتخيل منه تأذ أو استهانة • ففي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب لما ولى [illegible] يوم حنين ناد أصحاب السمرة فنادى بأعلى صوته أين أصحاب السمرة وكان رجلا صيتا رضي الله عنه "١"

---

(١) الآلوسي ـ تفسير ـ جـ ٨ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ط• أولى ـ المطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر سنة ١٣٠١هـ

حكم رفع الصوت عند قبره الشريف ـ صلى الله عليه وسلم :

وكره العلماء رفع الصوت عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحضرة العالم وفي المساجد . ١ . هـ "١"

قال القاضي أبو بكر بن العربي : حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه فاذا قرئ كلامه ، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به . وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى " واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا . . "

وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحي ، وله من الحكمة مثل ما للقرآن ، الا معاني مستثناه . ١ . هـ "٢"

وفي الآيات من الدلالة على قبح سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومن هذا وأمثاله تقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد وهو في الفضل هو أنه قال :ـ ما دققت بابا على عالم حتى يخرج في وقت خروجه . . . . . وأن الحبر ابن عباس كان يذهب الى أبيه لأبي عبيد في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه فيقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتى يخرج ، فاستعظم ذلك أبي (كما يقول أبو عبيد) منه فقال له يوما هلا دققت الباب يا ابن عباس فقال : العالم في قومه كالنبي في أمته . وقد قال الله تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام " ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم . . . . " الآية "٣" .

وذكر ابن كثير في التفسير قصة عمر رضي الله عنه مع الرجلين اللذين رفعهما صوتهما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) البحر المحيط ـ تفسير ـ ج ٨ ـ ص ١٠٦ ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسفي بن حيان الأندلسي القرناطي الجياني الشهير بأبي حيان ـ مكتبة ومطابع النصر الحديثه ـ الرياض .

(٢) القرطبي ـ ج ١٦ ـ ص ٣٠٧ .

(٣) الآلوسي ـ ج ٨ ـ ص ١٨٠

قال : (وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما فجاء ، فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما قالا : من أهل الطائف ، فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا .

وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما يكره في حياته عليه الصلاة والسلام ، لأنه محترم حيا ، وفي قبره صلى الله عليه وسلم دائما) ا . هـ "١" .

ماتوجيه الآية :

وتظهر روعة التوجيه وسمو التربية العالية بمراعاة النفسية الانسانية ، لا بالمخالفة والانحراف وطمس الفضيلة وحماية الرذيلة كما يفعل دعاة المذاهب المنحرفة ظنا من عند أنفسهم أنهم دعاة اصلاح عام اجتماعي وأخلاقي وما الى ذلك من الدعوات المشوهة ، وانما يقوم التوجيه الاسلامي على مبدأ المحافظة والتوازن حفاظ على الفضائل والأخلاق والعقائد والعبادات ، مع الحرص الكامل على سلامة النفس البشرية من الانحراف الباطن ، ومراعاة النفس البشرية بما لا يضر في الخط والتنظيم والمنهاج العام .

كل ذلك يتم بتناسق متكامل ، وتوازن عجيب . أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين باحترام النبي صلى الله عليه وسلم ـ واكرامه ، وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى ـ حفاظ على التعظيم لمن ينقل التشريع ، ولمن يبلغ عن الله رب العالمين ، وذلك لبقاء الهيبة واستتباب الأمر لما يرضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم أمر لنبيه عليه الصلاة والسلام بالرأفة والرحمة واللين والصبر والصفح عن مسيئهم ، واشعارهم بكرامتهم الانسانية من احترام لرأيهم في مجال الرأى وتشجيع لهم على الجرأة في الحق وقول الحق . وكل هذا ظاهر بين لمن يتتبع سيرته صلى الله عليه وسلم ، وقول الله تعالى له قال تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) وقال تعالى

---

(١) مختصر ابن كثير ـ ج ٣ ـ ص ٣٥٩ .

(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولـــك فاعف عنهم ، واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله) •

لين وتصميم وحزم • توازن عجيب ، وتناسق فريد ، الى غير ذلك من التوجيهات الربانية وذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر ، فيكون انقيادهم لوجه الله تعالى •

وفى هذا نبراس وقدوة صالحة لمن ملك أمرا من أمر المسلمين خاصـــة وتعليم للبشرية والانسانية جمعاء لتحفظ بذلك حريتها ، وتحترم انسانيتهـــا ، وتبقى للبشرية كرامتها •

ثم نرى القاعدة التربوية المثالية وذلك باتباع أسلوب عال فى التوجيه مع مراعاة الحق والصدق فى كل شىء لا مجرد التشويش والصياح مبتدأ بالتخويف والترهيب من أمر اذا فعلوه أدى للعذاب والتنكيل يتبعه ترغيب بالأجـــر والمغفرة ثم بالنعيم المقيم وذلك عند امتثال أمر الله فى طاعة الله وطاعة رسوله والابتعاد عن الهوى والحكم به ، لأن اتباع الهوى يجر عليهم من مآســـى وفوضى فى التنظيم ، واضطراب فى الحكم • واتباع الهدى طريق لهم الى الأجر •

وفى اتباع الأدب دليل على صفاء النفوس ، ونقاء القلوب ، وخلاصهـــا مما يجعلها مكانا خصبا لهبة الله تعالى ومنحهم اياها ، وهى التقوى التى هى حق التقاة ، وهى السعادة العظمى بحيث لا يخشى مع خشية اللـــه أحدا ، فهو آمن من كل مخيف (لايخاف فى الدنيا بخسا ، ولا يخاف فـــى الآخرة نحسا ، والناظر العاقل اذا علم أن بالخوف من السلطان يأمن جـور الغلمان ، ويتجنب الأراذل ينجو من بأس السلطان فيجعل خوف السلطـــان جنة ، فكذلك العالم لو أمعن النظر لعلم أن بخشية الله النجاة فى الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما فيجعل خشية الله جنته التى يحرس بهـــا نفسه فى الدنيا والآخرة • "[1] ثم قال تعالى (لهم مغفرة وأجر عظيم) •

---

(١) انظر الفخر الرازى جـ ٢٨ ـ ١١٥ ـ ١١٦ ـ

وهى المغفرة بازالة السيئات التى هيهى فى الدنيا لازمة للنفس والأجـــر العظيم اشارة الى الحياة التى هى بعد مفارقة الدنيا عن النفس فيزيل اللـه عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية .

ثم تنتقل الآيات الى نوع آخر من التوجيه ، وذلك بالمقارنة بين حال الذين يغضون أصواتهم وما هم عليه من أدب بلغ بهم من الاحترام والتقدير والتعظيم الى أن خفتت أصواتهم بحيث لا يكادون يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بعد الاستفسار واعادة السؤال .

وحال الذين أتوا عن غير علم بآداب المخاطبـة ومناجاة الرسول صلـى الله عليه وسلم على الطبيعة البدوية الخشنة مخاطبين له بخلاف ما ينبغى أن يكون لمقام النبوة وعظيم شأنها مخترقين عليه خلوته فى وقت راحته ، ووقته الخاص بـــه فى خلوته صلى الله عليه وسلم ، وهذا مما لا يحسن فى الأدب اتيان المحتـــاج اليه فى حاجته فى ذلك الوقت . ثم كان الوصف لهم بأنهم لا يعقلون) لما صدر منهم من النداء الذى لم يكن مقرونا بحسن الأدب ، ثم اشارة الى حسن الأدب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب ، فانهم لو صبروا لما احتاجوا الى النداء قال الله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) وفى هذا التوجيه اشارة الى المراد هو الحسن والخير ، وهو ما عليه حال الفئة الأولى ، وما تباعهم لهذا الحسن والخير يحصلون بذلك على خيرى الدنيا والآخرة . وهذا أعلى ما يطلبون وما يتمنون . ثم تختم الآيات بقوله تعالى (والله غفور رحيـــم) اشارة لسوء صنيعهم فى التعجل ، ومدحا للصبر وعواقبه الحميدة ، وأن اللـه تعالى يغفر لهم ما صدر منهم ، وهذه أمنية المؤمن بربه والمتبـــع لرسوله صلـى الله عليه وسلم المطبق لشريعته النازل عند حكمه ، وفى ذلك غاية المنى ونهاية القصد ، ثواب الله ورضاه فى الدنيا والآخرة ، ثم الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

البـــاب الرابـــع

المنهج العلمى فى التحرى عن نقل الأخبار :

١ ـ صفة من تقبل روايته .
٢ ـ عدالة الراوى .
٣ ـ شروط العدالة .
٤ ـ ضبط الراوى .

الجرح والتعديل .

الفروق بين الرواية والشهادة .

يقول سيد قطب عليه الرحمة (كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقي • وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير • وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة •

فلابد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون ، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها ، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها • ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء ، وكيف يتصرفون بها ، ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها)• "١"

ولما كانت هذه السورة ارشادا للمؤمنين ، ودعوة الى مكارم الأخلاق ، وذلك اما أن يكون مع الله تعالى أو مع رسوله صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم على صنفين ، لأنهم اما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجا عنها وهو الفاسق ، والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم اما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم فهذه خمسة أقسام :

أحدها : يتعلق بجانب الله •

ثانيها : بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم •

ثالثها : بجانب الفساق •

رابعها : بالمؤمن الحاضر •

خامسها : بالمؤمن الغائب فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يا أيها الذين آمنوا) وأرشدهم في كل مرة الى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة •

أولا : قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لأنها لا تعلم الا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقال :

ثانيا : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) لبيان وجوب احترام النبي صلى الله عليه وسلم • وقال :

ثالثا : (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ) لبيان وجوب الاحتراز

---

(١) في ظلال القرآن ــ سيد قطب ــ ج ٢٦ ــ ١٣٢ ــ الطبعة الخامسة •

عن الاعتماد على أقوالهم ، فانهم يريدون القاء الفتنة بينكم ... وقال :

رابعا : (يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم ...)البيان وجوب ترك ايذاء المؤمنين فى حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم ، وقال :

خامسا : (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ...) لبيان وجوب الاحتراز من كل ما من شأنه أن يشين .....

وفى هذا الترتيب غاية الحسن ، ومن تقديم بعض على بعض حسب الأهمية . "١"

ونرى هنا فى هذه الآية تخصيص الفاسق لانه مظنة الكذب وذلك حتى لايشيع الشك فى صفوف الجماعة المسلمة فى كل ما ينقله أفرادها من أنباء ، فيقع ما يشبه الشلل فى معلوماتها . فالأصل فى الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها . وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذا بها . فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره . وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لمايصل اليها من أنباء . ولا تعجل الجماعة فى تصرف بناء على خبر فاسق . فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع ، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله ، ويجانب الحق والعدل ..... "٢" ١٠هـ .

وهذا مدلول الآية العام الذى يتضمن المنهج فى التمحيص والتثبت فى تحرى الأخبار واظهار وبيان أن خبر الفاسق هو المرفوض وهو الذى يحتاج الى تثبت مستثنى من أخبار الصالحين فى هذه الامة لانه الأصل ، لأن الشك المطلق يشل حركة الجماعة المؤمنة ، ويعطل سير حياتها وتنظيمها . ولذا حرص الأوائل من سلفنا الصالح رضى الله عنهم بما تعلموه من آداب الشريعة وبما تربوا عليه من صدق فى القول ودقة فى النقل فكان منهم الحرص على تحرى الأخبار من مصادرها الصحيحة وليس مجرد النقل والرواية فقط وانما التحرى والدقة الكاملة فى الراوى والمروى عنه .

ولذلك نشأ علم جديد اختصت به هذه الأمة الاسلامية دون غيرها من الأمم وهو علم الحديث الذى يبحث فى الأمور التى تفحص الأخبار وتصنفها بحيث لا يبلغ خبر من الأخبار الا ولهم حكم فيه وفى ذلك الأمانة الكاملة فى نقل هذا العلم .

---

(١) فخر الرازى ـ جـ ٢٨ ـ ص ١١٨ ـ الطبعة الأولى ـ التزام عبد الرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر ـ بتصرف .

(٢) سيد قطب جـ ٢٦ ـ ص ١٣٣ .

فجعلوا للراوى صفات تقبل روايته على أساسها • ونأخذ على سبيل المثال لما كانـوا عليه من الدقة :

١ ــ صفة من تقبل روايته •
٢ ــ عدالة الراوى •
٣ ــ ضبط الراوى •
٤ ــ علم الجرح والتعديل •
٥ ــ الفروق بين الرواية والشهادة •

صفـة من تقبل روايته :

لقد أجمع الجماهير من أئمة الحديث والفقه على أنه يشترط فيمن يحتج بروايته أن يكون عدلا ضابطا (لما يرويه)•

وفسر العدل : بأن يكون مسلما بالغا عاقلا• فلا يقبل كافر ومجنـون[1] وذلك بالاجماع •

وكذلك أن يكون سليما من أسباب الفسق وخوارم المروءة • قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ") وقال تعالى (وأشهدوا ذوى عدل منكم) • وفى الحديث : (لا تأخذوا العلم الا ممن تقبلون شهادته) رواه البيهقى فى المدخل من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا ،وروى أيضا من طريق الشعبى عن ابن عمر عن عمر قال : كان يأمرنا أن لا نأخذ الا عن ثقة ، وروى الشافعى وغيره عن يحيى بن سعيد قال : سألت ابنا لعبد الله بن عمر عـــن مسألة فلم يقل فيها شيئا ، فقيل له : انا لنعظم أن يكون مثلك ابن امامى هدى

---

(١) وتعليل رفض الكافر واضح بين حيث لا يؤمن على دين لانه لا يوجد لديه الرادع والوازع والايمان الذى يمنعه عن الكذب والدس فهو مظنة للفساد والتضليل •
والمجنون : لا يؤمن له حيث لا يعرف صحة قوله لتخبطه بالاقوال والافعال وفى هذا مظنة لسوء الحفظ والضبط وكذلك العدالة حيث لا يلتزم بأمـــر دين ولا بآداب فهو فى غيبة عن التقيد بها • وليس له ضوابط عقلية تمنعه عن ارتكاب ما ينافى وقول ما لا يصح •

نسأل عن أمر ليس عندك فيه علم ، فقال : أعظم والله من ذلك عند الله وعند من عرف الله وعند من عقل عن الله أن أقول بما ليس لي فيه علم أو أخبر عن غير ثقة .

قال الشافعي : وقال سعد بن ابراهيم لا يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم الا الثقات ، أسنده مسلم في مقدمة الصحيح ، وأسند عن ابن سيرين : ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، وروى البيهقي عن النخعي قال : كانوا اذا أعوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا الى سمته والى صلاته والى حاله ثم يأخذون عنه . "١"

وقال ابن كثير في الباعث الحثيث في النوع الثالث والعشرين المقبول : الثقة الضابط لما يرويه . وهو المسلم العاقل البالغ ، سالما من أسباب الفسق وخوارم المروءة ، وأن يكون مع ذلك متيقظا غير مغفل حافظا ان حدث (من حفظه) فاهما ان حدث على المعنى . فان اختل شرط مما ذكرنا ردت روايته . "٢" ١ . هـ .

أقول ومما تقدم نرى من الدقة في التحري وتقييم الشروط والأوصاف وذلك دليل واضح على اهتمام سلفنا من هذه الأمة على دينهم والحفاظ على شريعة ربهم لكي لا يدخل فيها دخيل مغرض أو عدو لدود مفسد ، فقطعوا بذلك الطريق على كل من تسول له نفسه الدس على الاسلام مما ليس فيه ، وألجموا لسان كل كذوب تحدثه نفسه بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان من نتاج أمرهم أن صنفوا وكتبوا السنة المطهرة وما ورد من الأحاديث والأخبار فجاءت صافية نقية كما هي من مصدرها الأول ومن منبعها الأصيل . فحفظوا لهذه الأمة أمر دينها فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين كل خير مع اعترافنا لهم بكل جميل ومعروف داعين لهم حافظين عهدهم سائلين الله أن يجزيهم بخير ما يجزي به عباده الصالحين .

عدالة الراوي :

ذكر احمد شاكر في التعليق على الباعث الحثيث قول القاضي ابوبكر الباقلاني : " والشاهد والمخبر انما يحتاجان الى التزكية اذا لم يكونا

---

(١) تدريب الراوي ـ السيوطي ـ جـ ١ ـ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ـ دار الكتب الحديثة ـ ١٤ شارع الجمهورية بعابدين ـ القاهرة .

(٢) الباعث الحثيث ـ للحافظ ابن كثير ـ جـ ١ ـ ص ٩٢ تأليف احمد شاكر ط الثالثة مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ميدان الأزهر بمصر .

مشهورين بالعدالة والرضا وكان أمرهما مشكلا ملتبسا ، ومجوزا فيهما العدالة وغيرها .

والدليل على ذلك : أن العلم بظهور سرهما واشتهار عدالتهما أقوى فى النفوس من تعديل واحد واثنين يجوز عليهما الكذب والمحاباة" .

وتوسع الحافظ أبو عمر (ابن عبد البر فيه فقال : كل حامل علم معروف العناية به) فهو عدل (محمول) فى أمره (أبدا على العدالة حتى يتبين جرحه) (وقوله هذا غير مرضى) "١" .

وقال ابن كثير فى الباعث الحثيث :

وتثبت عدالة الراوى باشتهاره بالخير والثناء الجميل عليه ، أو بتعديل الأئمة أو اثنين منهم له ، أو واحد على الصحيح .

وشروط العدالة ، وضابطها اجمالا أنها ملكة تحمل على ملازمة التقوى والمروءة والمراد بالتقوى اجتناب الأعمال السيئة من شرك أو فسق أو بدعة فهى خمسة (بأن يكون مسلما ذا عقل قد بلغ الحلم سليم العقل ، من فسق وخرم مروءة .

والفسق : هو ارتكاب كبيرة أو اصرار على صغيرة .... وقول الزنجانى فى شرح الوجيز : المروءة يرجع فى معرفتها الى العرف فلا تتعلق بمجرد الشارع وأنت تعلم أن الأمور العرفية قلما تضبط بل هى تختلف باختلاف الأشخاص والبلدان ....

وفى الجملة رعاية مناهج الشرع وآدابه والاهتداء بالسلف والاقتداء بهم أمر واجب الرعاية .

قال الزركشى وكأنه يشير بذلك الى أنه ليس المراد سيرة مطلق الناس بل الذى نقتدى بهم ... "٢"

---

(١) تدريب الراوى ـ ج ص ٣٠٢ .

(٢) فتح المغيث السخاوى ج ١ ـ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ـ المكتبة السلفية ـ مطبعة العاصمة ـ بالقاهرة .

ضبط الراوى :

ويعرف ضبط الراوى بموافقة الثقات المتقنين الضابطين اذا اعتبر حديثه لحديثهم فان وافقهم فى روايتهم غالبا ولو من حيث المعنى فضابط ولا تضر مخالفته النادرة لهم ،فان كثرت مخالفته لهم وندرت الموافقة اختل ضبطه ولم يحتج بحديثه . "١"

وذكر السخاوى فى فتح المغيث قوله (ومن يوافق غالبا فى اللفظ ولو أتى بأنقص لا يتغير به المعنى أو فى المعنى ذا الضبط فهو ضابط محتج بحديثه أو يوافقه نادرا واذا كان يكثر من مخالفة ذا الضبط والزيادة عليه فيما أتى به فهو مخطىء عديم الضبط فلا يحتج بحديثه ،والى ذلك أشار الشافعى رحمه الله تعالى فيمن تقوم به الحجة فقال : ويكون اذا أشرك أهل الحفظ فى الحديث وافق حديثهم .

وقال ومن كثر غلطه من المحدثين ولم يكن له أصل كتاب صحيح لم يقبل حديثه كما يكون من أكثر التخليط فى الشهادة لم تقبل شهادته ، وقال فيما يعتضد به المرسل كما تقدم . ويكون اذا أشرك أحدا من الحفاظ فى حديث لم يخالفه فان خالفه ووجد حديثه أنقص كانت فى هذه دلائل على صحة مخرج حديثه . ويعرف الضبط أيضا بالامتحان ... "٢"

الجرح والتعديل :

ولما كانت الأوصاف المتقدمة تقوم على التوثيق والتعديل جعلوا لهذا الأمر شروطه وضوابطه بحيث يكون كالميزان لمعرفة الرواة ونقلة الأخبار .

فقد ذكر فى الباعث الحثيث (والتعديل مقبول ذكر السبب أم لم يذكر لأن تعداده يطول ولذلك قبل اطلاقه بخلاف الجرح ، فانه لا يقبل الا مفسرا لاختلاف الناس فى الأسباب المفسقة ، فقد يعتقد الجارح شيئا مفسقا فيضعفه ، ولا يكون كذلك فى نفس الأمر ، أو عند غيره ، فلهذا اشترط بيان السبب فى الجرح) .

---

(١) تدريب الراوى جـ ١ ص ٣٠٤ بتصرف والباعث الحثيث ص ٩٢ بتصرف .
(٢) فتح المغيث المصدر المذكور آنفا ـ جـ ١ ص ٢٧٩ـ٢٨٠ بتصرف قليل .

ولنأخذ مثالا على ذلك مما نقل عن بعضهم : أنه قيل له : لم تركت حديث فلان ؟ فقال : رأيته يركض على برذون فتركت حديثه • ومنها : أنه سئل بعضهم عن حديث لصالح المرى ؟ فقال : ما يصنع بصالح ؟ ذكروه يوما عند حماد بن سلمة ، فامتخط حماد ١١ "١"

وقد اختلف فى عموميات هذا العلم من حيث كون بعض الألفاظ كافية فى الجرح أو لا تكفى •

(قال الشيخ ابو عمرو : وأكثر ما يوجد فى كتب الجرح والتعديل " فلان ضعيف " أو " متروك " ونحو ذلك ، فان لم نكتف به انسد باب كبير فى ذلك •

وأجاب : بأنا اذا لم نكتف به توقفنا فى أمره ،لحصول الريبة عندنا بذلك) ١٠هـ٠٠

(أما كلام هؤلاء الائمة المتعصبين لهذا الشأن ، فينبغى أن يؤخذ مسلما من غير ذكر أسباب ، وذلك للعلم بمعرفتهم ، واطلاعهم واضطلاعهم فى هذا الشأن ، واتصافهم بالانصاف والديانة والخبرة والنصح لاسيما اذا أطبقوا على تضعيف الرجل ، أو كونه متروكا ،أو كذابا ، أو نحو ذلك • فالمحدث الماهر لا يتخالجه فى مثل هذا وقفة فى موافقتهم ، لصدقهم وأمانتهم ونصحهم •

ولهذا يقول الشافعى (رحمه الله) فى كثير من كلامه على الأحاديث " لا يثبته أهل العلم بالحديث" ، ويرده ،ولا يحتج به ،بمجرد ذلك• والله أعلم) • "٢"

واختلفوا فى الجرح والتعديل : هل يقبلان مبهمين من غير ذكر أسبابهما فشرط بعضهم لقبولهما ذكر السبب ، وشرط بعضهم ذكر السبب فى التعديل دون الجرح • وقبل بعضهم التعديل من غير أسبابه • وشرط

---

(١) الباعث الحثيث ـ ص ٩٤ نفس الطبعة السابقة •
(٢) المصدر نفسه ـ ٩٥ ـ

فى الجرح بيان السبب مفصلا • وهو الذى اختاره ابن الصلاح والنووى وغيرهما ، وهو المشتهر عند كثير من أهل العلم •

واعترض ابن الصلاح على هذا بكتب الجرح والتعديل• فانها ـ فى الأغلب ـ لا يذكر فيها سبب الجرح ،فالأخذ بهذا الشرط يسد باب الجرح وأجاب عن ذلك بأن فائدتها التوقف فيمن جرحوه ، فان بحثنا عن حاله وانزاحت عنه الريبة وحصلت الثقة به قبلنا حديثه • "١"

أقول : قد يكون بيان الجرح فى زماننا لابد منه وذلك لأسباب منها قلة الوازع الدينى عند كثير من الناس• وكثرة الحكم بالهوى واختلاف المفاهيم بحيث تجد كل انسان يحكم على الآخر بما عرفه من أمور وأعراف وعادات قد لا تكون فى أصلها منافية للشريعة وكذلك ليكون الأمر واضحا ودقيقا بأن يعرض هذا النوع من الجرح على الشريعة وأحكامها فان كان مما يسبب فسوقا أو يجرح فى مروءة وذلك مما ينافى أمر الدين حكمنا بجرحه فان لم ينافى قبل خبره واعتمد نقله هذا بالنسبة للأمور العامة والأخبار •

وأما بالنسبة للعصر الأول والعهود الخيرة فقد ذهب بعضهم الى أنه لا يجب ذكر السبب فى الجرح أو التعديل ، اذا كان الجارح أو المعدل عالما بأسباب الجرح والتعديل والخلاف فى ذلك ، بصيرا مرضيا فى اعتقاده وأفعاله •

وقال السيوطى فى التدريب ص٣٠٧ بتفصيل (ومقابل الصحيح أقوال :
أحدها : قبول الجرح غير مفسر ، ولا يقبل التعديل الا بذكر سببه ، لأن أسباب العدالة يكثر التصنع فيها فيبنى الجارح والمعدل على الظاهر•
نقله امام الحرمين والغزالى والرازى فى المحصول •

الثانى : لا يقبلان الا مفسرين ، حكاه الخطيب والأصوليون ،لأنه كما قد يجرح الجارح بما لا يقدح ، كذلك يوثق المعدل بما لا يقتضى العدالة ،كما روى يعقوب الفسوى "٢" فى تاريخه قال : سمعت انسانا يقول لأحمد بن يونس:

---

(١) المصدر نفسه ـ الحاشية ـ ٩٥ ـ

(٢) منسوب لفسا ـ بفتح الفاء والسين ـ مدينة من بلاد فارس وهو: يعقوب بن سفيان العالم الكبير ، سمع ورحل وصنف وتوفى سنة (٢٧٧)هـ •

عبد الله العمري ضعيف ،قال : انما يضعفه رافضي مبغض لآبائه ، لو رأيت لحيته وهيئته لعرفت أنه ثقة . فاستدل على ثقته بما ليس بحجة ، لأن حسن الهيئة يشترك فيه العدل وغيره .

الثالث : لا يجب ذكر السبب في واحد منهما اذا كان الجارح والمعدل عالمين بأسباب الجرح والتعديل ، والخلاف في ذلك ، بصيرا مرضيا في اعتقاده وأفعاله وهذا اختيار القاضي أبي بكر ونقله عن الجمهور ، واختاره امام الحرمين والغزالي والرازي والخطيب ، وصححه الحافظ أبو الفضل العراقي والبلقيني في محاسن الاصطلاح .

واختار شيخ الاسلام تفصيلا حسنا ، فان كان من جرح مجملا قد وثقه أحد من أئمة هذا الشأن لم يقبل الجرح فيه من أحد كائنا من كان الا مفسرا لأنه قد ثبتت له رتبة الثقة فلا يزحزح عنها الا بأمر جلي ، فان ائمة هذا الشأن لا يوثقون الا من اعتبروا حاله في دينه ، ثم في حديثه ، ونقدوه كما ينبغي ، وهم أيقظ الناس فلا ينقض حكم أحدهم الا بأمر صريح ، وان خلا عن التعديل قبل الجرح فيه غير مفسر اذا صدر من عارف ، لأنه اذا لم يعدل فهو في حيز المجهول ، واعمال قول المجرح فيه أولى من اهماله .

وقال الذهبي — وهو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال — : لم يجتمع اثنان من علماء هذا الشأن قط على توثيق ضعيف ، ولا على تضعيف ثقة ،انتهى .

ولهذا كان مذهب النسائي : أن لا يترك حديث الرجل حتى يجمعوا على تركه .

الرابعة : الصحيح أن الجرح والتعديل يثبتان بواحد لأن العدد لم يشترط في قبول الخبر ،فلم يشترط في جرح روايه وتعديله ، ولأن التزكية بمنزلة الحكم وهو أيضا لا يشترط فيه العدد . وقيل لابد من اثنين (وسوف يبين الصحيح في ذلك بالفرق بين الرواية والشهادة) انشاء الله .

قال شيخ الاسلام ـ أى ابن حجر :ـ
ولو قيل يفصل بين ما اذا كانت التزكية مسندة من المزكى الى اجتهاد مأو الى النقل عن غيره لكان متجها ، لانه ان كان الاول فلايشترط العدد أصلا لانه بمنزلة الحكم • وان كان الثانى فيجرى فيه الخلاف ويتبين أيضا أنه لا يشترط العدد لأن أصل النقل لا يشترط فيه فكذا ما تفرع منه ،١ • هـ "١"

واذا اجتمع فى الراوى جرح مفسر وتعديل فالجرح مقدم ولو زاد عدد المعدل ،هذا هو الاصح عند الفقهاء والأصوليين ، ونقله الخطيب عن جمهور العلماء (هذا حكم التعارض بين قولين لعالمين ، أما اذا تعارض القولان من عالم واحد ،كما اتفق ليحيى بن معين وابن حبان ، فان العمل على آخر القولين ، ان علم المتأخر وان لم يعلم فالوقف • كماذكره الزركشى) •

لأن مع الجارح زيادة علم لم يطلع عليها المعدل ، ولأنه مصدق للمعدل فيما أخبر به عن ظاهر حاله ، الا أنه يخبر عن أمر باطن خفى عنه ، وقيد الفقهاء ذلك بما اذا لم يقل المعدل عرفت السبب الذى ذكره الجارح ولكنه تاب وحسنت حاله ،فانه حينئذ يقدم المعدل• "٢"

وقد توسعوا فى هذا الباب حتى وضعوا الموازين الدقيقة والالفاظ الدالة على درجة كل انسان واين يوضع حديثه وعلى هذا الأساس بنوا حكمهم على الأحاديث ودرجتها من صحيح وحسن وضعيف الى غير ذلك والله أعلم •

الفروق بين الرواية والشهادة : ولعل من أفضل ما ننقله فى هذا الباب بالايجاز هو ماخصه السيوطى فى تدريب الراوى حيث قال :

(من الأمور المهمة تحديد الفرق بين الرواية والشهادة ، وقد خاض فيه المتأخرون ، وغاية ما فرقوا به الاختلاف فى بعض الأحكام كاشتراط العدد وغيره ، وذلك لا يوجب تخالفا فى الحقيقة ، قال القرافى : أقمت مدة أطلب الفرق بينهما حتى ظفرت به فى كلام المازرى ، فقال الرواية : هى الاخبار عن عام لا ترافع فيه الى الحكام وخلافه الشهادة ، وأما الأحكام التى يفترقان فيها فكثيرة لم أر من تعرض لجمعها ، وأنا أذكر منها ما تيسر :

---

(١) تدريب الراوى ـ السيوطى جـ ١ (٣٠٧ ـ ٣٠٩)
(٢) " " جـ ١ ـ ص ٣٠٩ نفس الطبعة السابقة •

الاول : التعدد : لا يشترط في الرواية بخلاف الشهادة ، وقد ذكر ابن عبد السلام في مناسبة ذلك أمورا :

أحدها : أن الغالب من المسلمين مهابة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف شهادة الزور ،

الثاني : أنه قد يتفرد بالحديث راو واحد ، فلو لم يقبل لفات على أهل الاسلام تلك المصلحة ، بخلاف فوت حق واحد على شخص واحد ،

الثالث : أن بين كثير من المسلمين عداوات تحملهم على شهادة الزور بخلاف الرواية عنه صلى الله عليه وسلم .

الثاني : لا تشترط الذكورية في الرواية مطلقا بخلاف الشهادة في بعض المواضع "١"

الثالث : لا تشترط الحرية في الرواية بخلاف الشهادة مطلقا .

الرابع : لا يشترط في الرواية البلوغ في قول .

الخامس : تقبل شهادة المبتدع الا الخطابية ولو كان داعية ، ولا تقبل رواية الداعية ولا غيره ان روى موافقة .

السادس : تقبل شهادة التائب من الكذب دون روايته .

السابع : من كذب في حديث واحد رد جميع حديثه السابق ، بخلاف من تبين شهادته للزور في مرة لا ينقض ما شهد به قبل ذلك .

الثامن : لا تقبل شهادة من جرت شهادته الى نفسه نفعا أو دفعت عنه ضررا ، ممن روى ذلك .

التاسع : لا تقبل الشهادة لأصل وفرع ورقيق بخلاف الرواية .

العاشر والحادي عشر والثاني عشر : الشهادة انما تصح بدعوى سابقة وطلب لها وعند حاكم ، أما الرواية فهي بخلاف ذلك .

---

(١) نقل الزركشي عن ابن أبي الدم : أن النساء لا خلاف في جواز الرواية عنهن مع وجوب احتجابهن . قال الزركشي : ولا يجوز النظر للراوية فيما يظهر بخلاف الشهادة ، حيث يجوز بل قد يجب .

الثالث عشر : للعالم الحكم بعلمه فى التعديل والتجريح قطعا مطلقا بخلاف الشهادة ، فان فيها ثلاثة أقوال : أصحها التفصيل بين حدود الله تعالى وغيرها .

الرابع عشر : يثبت الجرح والتعديل فى الرواية بواحد دون الشهادة على الأصح .

الخامس عشر : الأصح فى الرواية قبول الجرح والتعديل غير مفسر من العالم ، ولا يقبل الجرح فى الشهادة الا مفسرا .

السادس عشر : يجوز أخذ الأجرة على الرواية بخلاف أداء الشهادة الا اذا احتاج الى مركوب .

السابع عشر : الحكم بالشهادة تعديل ، بل قال الغزالى أقوى منه بالقول بخلاف عمل العالم أو فتياه بموافقة المروى على الأصح .

الثامن عشر : لا تقبل الشهادة على الشهادة الا عند تعسر الأصل بموت أو غيبة أو نحوها بخلاف الرواية .

التاسع عشر : اذا روى شيئا ثم رجع عنه سقط ولا يعمل به ، بخلاف الرجوع عن الشهادة بعد الحكم .

العشرون : اذا شهدا بموجب قتل ثم رجعا وقالا تعمدنا لزمهما القصاص ، ولو اشكلت حادثة على حاكم فتوقف فروى شخص خبرا عن النبى صلى الله عليه وسلم فيها وقتل الحاكم به رجلا ثم رجع الراوى وقال : كذبت وتعمدت ، ففى فتاوى البغوى ينبغى أن يجب القصاص كالشاهد اذا رجع ، قال الواقفى : والذى ذكره القفال فى الفتاوى والامام أنه لا قصاص بخلاف الشهادة ، فانها تتعلق بالحادثة ، والخبر لا يختص بها .

أقول : والأمر ما قاله البغوى فى فتاويه فى هذه المسألة بوجوب القصاص لما صرح به بأنه كذب وتعمد فكأنه تساوى هنا مع الشاهد الذى ساق شهادته عمدا لايجاب قتل ثم صرح بتعمده والله أعلم .

الحادى والعشرون : اذا شهد دون أربعة بالزنا حدوا للقذف فى الأظهر ، ولا تقبل شهادتهم قبل التوبة ، وفى قبول روايتهم وجهان ؛ المشهور منهما القبول ذكره الماوردى فى الحاوى ونقله عنه ابن الرفعه فى الكفاية ، والأسنوى فى الألغاز . "١"

أقول : الأولى فى هذا أن يحامل القاذف فى رفض روايته كما ترفض شهادته وذلك لما فى القذف من التعدى على الأعراض والافتراء والكذب . وفى هذا قدح فى المروءة ، فعلى هذا ينبغى أن ترد روايته . والله أعلم .

وقد توسع العلماء رحمهم الله فى موضوع الدقة فى النقل والتحرى عن الأخبار حتى جعلوا لكل شئ من أدوات النقل الصحيح الدقيق موازينه الضابطة له وزادوا على ما تقدم من الأمثلة الى كيفية السماع والتحمل وصفة الضبط ، ومتى تقبل رواية الراوى ومتى تمنع . وصار الخلاف فى ذلك ، وكل يطلب الحق فى أمره منهم من أصاب ومنهم من أخطأ ، رحمهم الله تعالى .

قالوا : تقبل رواية المسلم البالغ ما تحمله قبلهما وذلك فى حال الكفر والصبا . وقد اختلفوا فى قبول رواية الصبى بعد البلوغ وفى رفض رواية الصبى بعد البلوغ رأى خلاف للصواب ، وما عليه الناس من أئمة هذا العلم وأهله حيث قبلوا رواية أحداث الصحابة كالحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وابن عباس والنعمان بن بشير والسائب بن يزيد والمسور بن مخرمة وغيرهم من غير فرق بين ما تحملوه قبل البلوغ وبعده .

وكذلك كان أهل العلم يحضرون الصبيان مجالس الحديث ويعتدون بروايتهم بعد البلوغ .

وبالنسبة للكافر وقبول روايته التى تحملها وهو فى حالة كفره أمثلة على ذلك : حديث جبير بن مطعم المتفق عليه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، وكان جاء فى فداء أسرى بدر قبل أن يسلم . وفى رواية للبخارى :

---

(١) المصدر نفسه ـ جـ ١ ص ٣٣١ ـ ٣٣٤ وقد ذكر هذه الفروق ـ فى كتاب الفروق ـ للقرافى ـ الامام شهاب الدين أبى العباس الصنهاجى ـ جـ ١ ـ ص ٤ ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت .

" .... وذلك أول ما وقر الايمان فى قلبى) "١"

وزيادة فى الدقة جعلوا للسماع سنا معينة • (قال جماعة من العلماء: يستحب أن يبتدئ بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة ، وقيل بعد عشرين ، والصواب فى هذه الأزمان التبكير به حين يصح سماعه ، ويكتبه وتقييده ، حين يتأهل له ، ويختلف باختلاف الأشخاص .....

وقد بينوا أقسام طرق تحمل الحديث ومجامعها ثمانية أقسام : نذكرها بايجاز :

الأول : سماع لفظ الشيخ ، وهو املاء وغيره من حفظ ومن كتاب • وهو أرفع الأقسام عند الجماهير • وهناك ألفاظ دالة عليه ، قال الخطيب أرفعها سمعت • ثم حدثنا وحدثنى ثم أخبرنا ، وهو كثير فى الاستعمال • وهناك تفصيل واف فى مراجع هذا العلم • "٢"

الثانى : القراءة على الشيخ ، ويسميها أكثر المحدثين عرضا سواء قرأت على الشيخ أو غيرك قرأ وأنت تسمع • من كتاب أو حفظ ومرتبتها بالتساوى مع السماع على رأى •

أقول : ولا مجال للتفضيل لأن الأمر يختلف باختلاف الأشخاص ، فمنهم من اذا سمع يكون أوعى من حاله وهو يقرأ ، ومنهم من اذا قرأ يكون أوعى من حاله وهو يسمع • وهذا أمر تابع لفطرة كل انسان ، وعلى هذا يكون رأى التساوى بينهما أولى والله أعلم .....

وعبارات السماع مقيدة : كحدثنا أو أخبرنا قراءة عليه مع وجود الخلاف فى أدل الألفاظ والله أعلم • "٣"

---

(١) تدريب الراوى ـ جـ ٢ ـ ص ٤ •

(٢) المصدر نفسه ـ جـ ٢ ـ ص ١٢ وما بعدها بتصرف •

(٣) " " ـ جـ ٢ ـ ص ١٦ ....

الثالث : الاجازة وهي أنواع منها : أن يجيز معين لمعين ، والتفصيل في هذا القسم في مراجع هذا العلم .

الرابع : المناولة ، وهي على نوعين :
١) مقرونة بالاجازة
٢) مجردة عنها

الخامس : الكتابة : وهي أن يكتب الشيخ مسموعه لحاضر أو غائب بخطه أو بأمره .
وهي كذلك نوعان :
١) مجردة عن الاجازة
٢) مقرونة بالاجازة

السادس : اعلام الشيخ الطالب أن هذا الحديث أو الكتاب سماعه مقتصرا عليه ،

السابع : الوصية : وهي أن يوصي الشيخ عند موته أو سفره لشخص بكتاب يرويه .

الثامن : الوجادة ، وهي مصدر لوجد مولّد غير مسموع من العرب .
وهي أن يقف الراوي على أحاديث بخط راويها لا يرويها الواجد فله أن يقول وجدت أو قرأت بخط فلان أو في كتابه بخطه ... الخ . "١"

وكل هذا يدل على مدى حرص سلفنا الصالح الذين وهبوا حياتهم وسخروا أقلامهم لخدمة هذا الدين فبحثوا وألفوا وكتبوا وذلك لتثبيت دعائم هذا العلم الشريف وتقوية جانبه بحيث يذب عنه كيد أعدائه وزيف خصومه من فاسقين وملاحده ، فأجهدوا أنفسهم الى أن وصلوا الى هذه الموازين التي لا تكاد تخطئ ، وفي هذا ما فيه من الحفاظ على كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وفقا لقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

فبعد أن بين الله تعالى ضرورة التثبت وأهميته ذكرهم بشئ نفسي وأمر خطير اذا أقدموا على أمر بمجرد نبأ عارض أو خبر طارئ فيكون لمثل هذا

---

(١) المصدر نفسه ـ ج ٢ ـ ص ٦٠ بتصرف .
ملاحظة : ومن مراجع هذا العلم ، تدريب الراوي ـ فتح المغيث الباعث الحثيث ـ مقدمة ابن الصلاح ـ تذكرة الحفاظ ... الخ .

الأمر عاقبته أن هم وقعوا بالحكم على انسان جاهلين لحقيقة الأمر وذلك نتاجا للتسرع وعدم التروى فتكون النتيجة الندم على ما يحصل منهم من ظلم الآخرين وأخذ هم على غير علم واضح ويقين ثابت .

وفى ذلك دوام الهم والحزن والتلبس به ، وهذا ما يحصل للعاقل اذا فعل فعلا أخطأ فيه . وفى ذلك مدح للمؤمنين بحيث لم يكونوا ممن اذا فعلوا سيئة لم يندموا عليها . بل يصبحون نادمين متحسرين لما وقع منهم لأن المؤمن يتحرى فى فعله وقوله الصواب مخافة أن يقع فى أمر لا يرضى ربه ، ولذلك تراه وجلا فى أمر يجهله حتى يعلم الحق فيه .

ثم تشير الآيات التالية مذكرة الى أدب لابد أن يفعلوه ، والى حدود لا ينبغى لهم أن يتعدوها . قال الله تعالى : (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) .
لأنه لا ينبغى لهم أن يتقدموا فى حكم أو رأى ويقطعوا به حتى يعودوا اليه فيه لأنه هو المرجع الوحيد ، والصلة الصادقة بين الأرض والسماء . وفى هذا اشارة عظيمة الى الاستسلام الكامل لحكم الله ورسوله وطاعتهما ، وفى هذا سعادتهم فى الدنيا والآخرة . وقد لفت الله سبحانه وتعالى نظرهم الى أمر قد علموا وجوبه وكنهه خفى عليهم .

وفى هذا يقول الفخر الرازى عند قوله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله) يعنى لا يخفى عليكم وجوب مراجعته ، فان كان خفى عليكم كونه فيكم ، فاعلموا أنه فيكم ، فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ فى بيان كونه فيهم ، وهذا من المعانى العزيزة التى توجد فى المجازات ولا توجد فى الصرائح . ١ . هـ "١" (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) .
وفى هذا ايحاء لهم بأن يسلموا أمرهم الى الله ورسوله المتصل بوحى السماء وذلك ليستسلموا لقدر الله وحكمه ، ويكونوا مكانا للتلقى ومستقرا له ، ولا يقترحوا فيما يقصر علمهم فيه فى الموقت الذى يتلقون كل شىء من أمورهم التى تكفل سعادتهم من خالق السموات والأرض ، وممن يعلم سرهم ونجواهم .

---

(١) الفخر الرازى ـ جـ ٢٨ ـ ص ١٢٣ ـ ط . الأولى ـ التزام عبد الرحمن محمد رضوان الازهر بمصر .

وان تدبير الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بوحى السماء ، وفى هذا الرحمة والخير لهم .

فما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطيعهم في كل ما يبدو لهم أنه خير ، وفى اطاعتهم العنت والمشقة فى الأمر ، فالله سبحانه وتعالى أعلم بحالهم وبما هو خير لهم ورسوله صلى الله عليه وسلم الرحيم بهم يدبر لهم أمورهم بما يصلح حالهم ، ويختار لهم ما فيه سعادتهم الحقيقية .

مع بقاء جانب الشورى لهم فى بعض الأمور التى يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون فيها وحى من السماء . ففى هذه الحالة يعمل بمقتضى مصلحتهم ، وبما يعود عليهم بالفائدة من أمور دنياهم ، ويتحقق قول الله تعالى (وشاورهم فى الأمر) .

والمرجع الأخير فى الأمر ، والبت فى الحكم يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم تنتقل الآيات لملامسة شغاف القلوب وتحريكها بما وضع فيها من ايمان زينه لهم بحيث تمكن فى قلوبكم تمكنا لا يخرج منها ولا تفارقونه لما وجدتموه من حلاوة الايمان . وفى هذا الفضل العظيم . وهذا من اختيار الله لكم ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أراد لهم هذا الخير ، وهو سبحانه الذى خلصهم من ذلك الشر قال تعالى (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) ، وفى كل هذا وذاك توجيه وايحاء من الله سبحانه وتعالى الى ضرورة الانقياد والاستسلام لحكم الله وتدبيره ، واتباع توجيه الله لهم ، وفى ذلك أمور يقتضيها الأمر من طاعة لله ولرسوله والانقياد والاستسلام لما يحكمانه ، لأن الله أدرى بما يصلح العباد . فهو خالقهم والرسول صلى الله عليه وسلم المبلغ عن ربه ، الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى فالحق والخير فى اتباعه ، والرجوع اليه ، ففى هذا الخير المحقق ، والطريق الآمن المضمون الذى يوصل الانسان بعد هذه الفترة الوجيزة على وجه هذه الأرض الى السعادة الأبدية التى فيها رضاء الله وجنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين . وذلك باتباع شريعة الله ، وطاعة الله ورسوله . قال الله تعالى : (ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم) سورة يوسف (١٢/٤٠) وقال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)

سورة المائدة / ٥/ ٤٤). وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا . ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) سورة النساء (٤/ ٥٩ ــ ٦٠) . وقال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) سورة النساء (٤ / ٦٤) .

وكل هذه الآيات وأمثالها تفيد أن يكون الحكم لله وللرسول ووجوب طاعتهما . وفى ذلك المصلحة كل المصلحة باتباع شريعة الله لأن الحياة لا تقوم الا بالعدل ولا عدل ولا حق الا باتباع نظام الحياة الذى وضعه لنا رب العالمين ، وذلك لسعادتنا . ففى دستور الله الحاوى لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما يحقق العيش الرغيد فى الدنيا والآخرة ، ويحقق الأمن والحرية ، ويحفظ للبشر كرامتهم من العبث ، ومن أن يلعب بها لاعب ، فالناس سواسية أمام شريعة الله ، لا فرق لعجمى على عربى ، ولا لعربى على عجمى ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود . كل هذه الفوارق داسها الاسلام ، وجعل ميزان التفاضل هو ما يقدمه الانسان من خير ، ومن طاعة لله وللرسول ، وذلك بكلمة جامعة وهى التقوى .

فكل هذه الآيات آمرة لنا بأن نرجع فى أمورنا وتحاكمنا الى دستور وقانون من هو أدرى بأحوالنا ، وتحقيق مصالحنا .

ولكن البشر يمر بمرحلة من الرقى عندما يذكر الله تعالى ويؤمن بالله ويتبع رسله ، ولكنه ما يفتأ ينقلب على عقبيه ، وذلك عندما يتبع الهوى والشيطان ، فيضل عن سواء السبيل ، ويطغى بعضه على بعض ، ثم يخرج منه مردة وشياطين يستبدلون له الخير بالشر ، والأعلى بالأدنى . وهذا ما نراه بالقوانين الوضعية التى يضعها أناس لهم مصالح وأهواء وغايات يريدون تحقيقها ، ولكنهم لا بد لهم من أن يستروا كذبهم وغاياتهم الخبيثة بشىء من المظاهر والشعارات التى يرفعونها من دعوى الى مصالح فئة دون فئة ، وقوم دون قوم ، وجنس دون جنس ،

ذلك لكسب تأييد من يتبعهم من الرعاع والغوغائية التي لا تدري الى أين هي ذاهبة ، فما تصحو من تيهها الا وقد ملك أمرها أناس تغيرت دعواتهم واستشرت نفوسهم ، وصاروا في مركز القوة يدعون ويفترون على الله الكذب ، فيشرعون ويتجبرون وكأنهم بالحال حال فرعون عندما قال لقومه (أنا ربكم الأعلى) .

وما نراه من واقع حياتنا مما عاصرناه ورأيناه ، ونراه من تخبط في الحكم والحكومات ، ومن أناس اعتلوا رقاب العباد ، فلبسوا لباس الحملان وقلوبهم ونفوسهم قلوب ونفوس الذئاب الشرسة ، وما أظن من عاقل ينكر ما نحن فيه ، ليس في منطقتنا العربية فحسب ، وانما في الدنيا كلها ، وذلك نتيجة للابتعاد عن منهج الله وشريعة الله حتى نشأت دعوات كافرة في الأوساط المؤمنة وذلك بالافتراء والكذب برمي الاسلام ودعاته بالرجعية والتخلف أحيانا ، وفي عدم صلاحية حكم الله وشريعة الله لزمان يدعون أن التقدمية فيه ظنا من عند أنفسهم ، وذلك نتيجة ما هم فيه من الغواية والضلال ، فعميت أبصارهم عن رؤية الحق ، وطمست قلوبهم عن وعي ما هم باتهامه بأنه الرجعية والتخلف ، الا أنهم انغمسوا في التخلف والبهيمية واللاأخلاقية والحيوانية ، وعادوا بأخلاقهم الى أحط العصور التي مرت على تاريخ البشرية من التكالب والقتل والسلب والنهب والتسلط واهدار الأعراض وقتل الحرية والكرامة في نفوس البشر ، يدعون للحرية وهم أبعد الناس عن تحقيقها ، بل هم أعدى الأعداء لها ، لأن في الحرية وبال عليهم ، وشر مستطير يزعزع كيانهم ويدعون للمساواة وهم رؤساء الظلم ودعاته من حب للتسلط وقتل للأبرياء ، وسلب للحريات ، وكم من آمن في بيته لم يعد يشعر بالأمن . وقد ترى الحيوان الذي يعيش في الغابة يهنأ بالأمن والاستقرار أكثر من كثير من بني البشر والانسانية .

دعوات ظالمة كافرة ملحدة منحرفة لا قيم ولا أخلاق ولا مثل ولا مساواة فيها وانما الهوى وحده هو الحاكم ، وصدق الله العظيم اذ يقول ، (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض) ، ومن المؤسف جدا أن تظهر مثل هذه الدعوات في أرض النبوات ، ومخرج الرسالات من الأرض التي انطلق منها نور الحق ، من البلاد التي سارت منها حوافل الحق فاتحة للبشرية طريق الهداية ، وحاملة لها نور الحق لتخرجها من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، لتصنع لهم موازين الحق والمساواة والحرية الحقيقية ، والعدل الذي يحقق لهم مصالحهم ويحفظ عليهم كرامتهم . بحق لا بادعاء الحاكم والمحكوم أيهم حكم الله

سواء ، والعبد والسيد أمام شريعة الله سواء . فهذا الفارق الكبير بين القوانين الوضعية التى تحكم بالهوى لتحقق مصالح فئة من الناس وبين قانون السماء الذى يحكم بالحق والعدل ليحقق مصالح الانسانية والبشرية جمعاء ، وبهذا سعادة الأرض ومن عليها ، ودحض للدعوات المناوئة الكافرة الملحدة .

ولا يتحقق لبنى الانسان وللبشرية جمعاء سعادتهم الا باتباع شريعة ربهم والحكم بها ، وجعل الحاكمية لله وحده دون البشر . وفى هذا السعادة الكبرى والكرامة المثلى والحرية الحقيقية التى يتمناها كل انسان يشعر بكرامته وتعز عليه مروءته وتخلوا عليه محارمه ومقدساته . ويكره كل حيف وجور ، ويحب كل عدل وحق وذلك يمثل المثالية فى بشريته وانسانيته التى كرمه الله بها عن سائر المخلوقات .

وفى الفرق بين الأمور الثلاثة وهى الكفر والفسوق والعصيان يقول الامام الفخر الرازى (هذه أمور ثلاثة فى مقابلة الايمان الكامل ، لأن الايمان الكامل المزين هو أن يجمع التصديق بالجنان ، والاقرار باللسان ، والعمل بالأركان .

أحدها : قوله تعالى (وكره اليكم الكفر) وهو التكذيب فى مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب .

وثانيها : هو ماقبل هذه الآية وهو قوله تعالى (ان جاءكم فاسق بنبأ) سمى من كذب فاسقا فيكون الكذب فسوقا .

ثالثها : ماذكره سبحانه بعد هذه الآية وهوقوله تعالى (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) فانه يدل على أن الفسوق أمر قولى لاقترانه بالاسم .

رابعها : وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة ، على ما علم فى قول القائل : فسقت الرطبة اذا خرجت ، وغير ذلك . لأن الفسوق هو الخروج زيد فى الاستعمال كونه الخروج من الطاعة ، لكن الخروج لا يكون له ظهور بالأمر القلبى ، اذ لا اطلاع على ما فى القلوب لأحد الا لله تعالى . ولا يظهر بالأفعال لأن الأمر قد يترك اما لنسيان أو سهو ، فلا يعلم حال التارك والمرتكب أنه مخطىء أو متعمد ، وأما الكلام فانه حصول العلم بما عليه حال المتكلم ، والدخول فى الايمان والخروج منه يظهر بالكلام ، فتخصص الفسوق بالأمر القولى أقرب .

ولكن الفسوق حقيقة هو الخروج عن طاعة الله ان كان فى الظاهر أوفى الباطن ، فما كمن فى الباطن ولم يظهر بشىء من الافعال والاقوال ، فأمر مرده الى الله هو الذى يعلمه ويحاسب عليه ، وما ظهر من قول أو فعل فهذا الظهور للناس حكم لهم على هذا الانسان الذى ظهر منه ذاك الفعل أو القول • والله أعلم •

وأما العصيان : فترك الأمر وهو بالفعل أليق ، واذا علم هذا ففيه ترتيب فى غاية الحسن ، وهو أن الله تعالى كره اليكم الكفر وهو الأمر الأعظم كما قال تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) • ثم قال تعالى (والفسوق) يعنى ما يظهر لسانكم أيضا ز ثم قال تعالى (والعصيان) وهو دون الكل ولم يترك عليكم الأمر الأدنى وهو العصيان •

وقال بعض الناس : الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة ، والعصيان هو الصغيرة • "١"

وما ذكره الفخر الرازى هو الأقوى والأرجح والله أعلم •

ثم تختم الآية بقوله تعالى (أولئك هم الراشدون) (وفى هذا نوع من الالتفات والخطاب فيه للرسول صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى يبصره عليه الصلاة والسلام ما هم فيه من سبق القدم فى الرشاد أى اصابة الطريق السوى فحاصل المعنى أنتم على الحال التى ينبغى لكم تغييرها وقد بدر منكم ما بدر ولكن ثم جمعا عما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الايقاع بالبرىء وارادة أن يتبع الحق أهواءكم براء لأن الله تعالى حبب اليكم الايمان ٠٠ ١٠ هـ • "٢"

(فضلا من الله ونعمة) يقول الطبرى فى تفسيره : (ولكن الله حبب اليكم الايمان وأنعم عليكم هذه النعمة التى عدها فضلا منه ، واحسانا ونعمة منه أنعمها عليكم) • (والله عليم حكيم) • والله ذو علم بالمحسن منكم من المسىء ، ومن هو لنعم الله وفضله أهل ، ومن هو لذلك غير أهل ، وحكمه فى تدبيره خلقه ، وصرفه فيما شاء من قضائه • ١ • هـ "٣"

حقا ان نعمة الايمان هى أعلى النعم •

---

(١) المصدر نفسه ـ جـ ٢٨ ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥

(٢) الألوسى ـ جـ ٨ ـ ص ١٨٣ •

(٣) الطبرى تفسير ـ جـ ٢٦ ـ ص ١٢٦ •

الباب الخامس

مبدأ الاصلاح فى المجتمع الاسلامى

أ ـ اصلاح ذات البين وأثر ذلك فى الحياة الاجتماعية :

١ ـ تعليل أسباب الخلاف .
٢ ـ الأحكام التى تؤخذ من الآية " وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ..... " الآية
٣ ـ العدل فى الصلح .

ب ـ الاخوة :

١ ـ ماتوحيه الآيات .
٢ ـ الظن وحكمه .
٣ ـ ماقيل فى التجسس .
٤ ـ حكم الجاسوس .
٥ ـ معنى الغيبة وحكمها .
٦ ـ ميزان الله تعالى فى البشر هو التقوى .
٧ ـ ماتوحيه الآيات .

مبـــدأ الاصـــلاح

أ ـ اصلاح ذات البين وأثر ذلك في الحياة الاجتماعيـــة :

لما كانت المجتمعات المثالية لا تقوم الا على أسس سليمة تحفظ لها كيانها وكرامتها وتضامنها وتوازنها كان لابد لها من ضوابط ولابد لها من منهج مثالـى يجعل منها أمة مثالية لمجتمع مثالى يكون قدوة للغير فى عمله وسلوكه ، فـــى عاداته وتقاليده ، فى مثله وأخلاقه ، فى كل شىء من أمور حياته . بذلك يكـــون داعية لما يؤمن به ويطبقه على واقعه وفى حياته .

وان الأمم والمجتمعات التى لا تقوم على العدل واقرار الحق تكون مجتمعات منحلة متفسخة سائرة فى طريق الانهيار والدمار والهلاك المحتم . لذلك كـان للمجتمع المثالى الذى تحقق على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضوابطـــه وموازينه وتعاليمه من أوامر ونواهى . فحذر الله تعالى عباده المؤمنين من أسباب فساد الأمم وعوامل انهيارها . وحذر الله المؤمنين من النبأ الصادر مـــن الفاسق وبذلك اشارة الى ما يلزم منه استدراكا لما يفوت فيكون قد فات الأوان ـ وذهبت الفرصة التى تفوت على الفاسق قصده اذا ما بنينا على قوله أمرا يوقـــع الخلاف والشقاق . وبذلك يؤول الأمر الى اقتتال طائفتين من المؤمنيـــن فكان التحذير أولا ثم أتى بيان طريق الاصلاح ثانيا فيما لو وقع ماحذر منـــه فبذلك الطريق من الاصلاح يزيل ما أثبته الفاسق ويتم الصلح بين الطائفتيـــن بالعدل والقسط . " فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى) وذلك مما لا بد منه من ردع للظالم عن ظلمه ودفعه عن ظلمه ، والظالم هنا اما أن تكون الرعية ، فالواجب على الأمير دفعهم ، وان كان الأمير فالواجب على المسلميـــن منعه ودفعه عن ظلمه بالنصيحة أولا ثم ما فوقها بشرط أن لا يثير فتنة مثل التـى فى اقتتال الطائفتين أو أشد منها ـ وكل هذا اذا كان الحاكم مسلما ليس خارجـا على حكم الله ورسوله) . "[1] .

وفى هذا يقول سيد قطب رحمه الله عند قول الله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلـــوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطـوا . ان الله يحب المقسطين .....) يقول عليه الرحمة : (وهذه قاعـــــدة

---

(١) ينظر الفخر الرازى ـ ص ١٢٦ .

تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النـــزوات والاندفاعات تأتي تعقيبا على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفـاع وراء الحمية والحماسة ،قبل التثبت والاستيقان • وسواء كان نزول هذه الآيـــة بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات أو كان تشريعا لتلافي مثل هذه الحالـة فهو يمثل قاعدة عامة محكمـة لصيانة الجماعة الاسلامية من التفكك والتفرق• ثم لاقرار الحق والعدل والصلاح • والارتكان في هذا كله الى تقوى الله ورجاء رحمته باقرار العدل والصلاح) • "١"

تعليل أسباب الخلاف :

وأسباب الخلاف والنزاع بين المسلمين أفرادا وجماعات له دوافع عديدة منهـا : اما أن يكون الخلاف المؤدى للقتال شخصيا محضا يلعب الهوى دوره فيه ، وهذا اما أن يكون من طرف دون طرف أو من كلا الطرفين على السواء• وفي هذه الحالة لابد من حسم النزاع بتذكير الطائفتين أو الشخصين بالله وبالعودة لحكم الله ورسوله ، فان نفع بهم التذكير ورضخا لحكم الله ورسوله حكم بينهمـــا بالعدل مما ينهى كل خلاف بينهما ، وأما ان رفض أحدهما أو كلاهما الأمـــر بالعودة لحكم الله قام المسلمون مع الامام ان كان النزاع بين طائفتين الى رد الحق الى نصابه ، وعودة المجموعة المؤمنة بكلا طرفيها الى حظيرة الأخـــوة الايمانية من المحبة والمودة والاحترام وحفظ الكرامة وما الى ذلك من الأمور التـــي تحفظ كيان الجماعة المؤمنة سليما قويا من أن يتصدع أو يحدث فيه أي خلـل • واما أن يكون النزاع والخلاف قائما على شيء من التأويل والاجتهاد فتظـن كـل طائفة أن الحق هو ماذهبت اليه فيؤدي الى القتال • واما أن يكون الخـــلاف قائما على حسد من طرف دون طرف ، وهذا ما يحصل غالبا بين الأفراد والاقـران حيث يتحرك الحسد الدفين في النفس فيجعله يتصرف بأمور تغيظ المحسود وتثيره ومن هذه النقطة يبدأ النزاع ، وتشتد الخصومة • واما أن يكون سبب القتـــال مرض دفين في أحد الطرفين من نفاق أو مذهب غريب يجعله يتحرج من اظهـــار مذهبه فيلجأ الى اثارة الفتن بشتى الوسائل وبشتى الطرق •

وفي هذا يقول القرطبي رحمه الله تعالى (قال العلماء : لا تخلـــو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما ، من أن يقتتلا على سبيل البغي منهمـــا

---

(١) في ظلال القرآن ــ سيد قطب ــ ج ٢٦ ــ ص ١٣٥ •

جميعا أولا • فان كان الأول فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة • فان لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغى صير الى مقاتلتهما • وأما ان كان الثانى وهوأن يكون احداهما باغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغى الى أن تكف وتتوب ،فان فعلت أصلح بينهما وبين المبغى عليها بالقسط والعدل • فان التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما أو كلتاهما عند أنفسهما محقة ، فالواجب ازالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق • فان ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا اليه ، ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين والله أعلم • "١"

وزاد الآلوسى (والتصدى لازالة الشبهة فى الفئة الباغية ان كانت لازم قبل المقاتلة وقيل الخطاب لمن يتأتى منه الاصلاح ومقاتلة الباغى فمتى تحقق البغى من طائفة كان حكم اعانة المبغى عليه حكم الجهاد) • "٢"
ويتعلق بهذه الآية الكريمة أحكام •

واستدل على أن المؤمن اذا ارتكب معصية لا يكفر ، لأن الله تعالى أبقى عليه اسم الايمان فقال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا •••••••) ثم قال سبحانه (انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم) واستدل أيضا بقول النبى صلى الله عليه وسلم (اذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار • قيل فهذا القاتل فما بال المقتول قال : انه أراد قتل صاحبه •••••) رواه البخارى ــ كتاب الفتن • فسماهما مسلمين مع التوعد بالنار والمراد هنا اذا كان القتال بغير تأويل سائغ ، واستدل أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام لأبى ذر " فيك جاهلية " أى خصلة من خصل الجاهلية ، مع أن منزلة أبى ذر من الايمان فى الذروة العالية ، وانما وبخه بذلك ــ على عظيم منزلته عنده ــ تحذيرا له عن معاودة مثل ذلك ، لأنه وان كان معذورا بوجه من وجوه العذر ، لكن وقوع ذلك من مثله يستعظم أكثر ممن هو دونه •

---

(١) القرطبى المصدر المذكور آنفا جـ ١٦ ــ ص ٣١٧
(٢) الآلوسى ــ جـ ٨ ــ ص ١٨٥
وذكر مثله فى البحر المحيط لأبى حيان

والطائفة : القطعة من الشيء ، ويطلق على الواحد فمافوقه عند الجمهور وأما اشتراط حضور أربعة فى رجم الزانى مع قوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) فالآية واردة فى الجلد ولا اشتراط فيه والاشتراط فى الرجم بدليل آخر. وأما اشتراط ثلاثة فى صلاة الخوف مع قوله تعالى (فلتقم طائفة منهم معك) فذاك لقوله تعالى " وليأخذوا أسلحتهم " فذكره بلفظ الجمع وأقله ثلاثة على الصحيح .

الأحكام التي تؤخذ من الآية :

وقد ذكر القرطبى فى كتابه أحكام القرآن مسائل وأحكام تؤخذ من الآية الكريمة :

(فى هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الامام أو على أحد من المسلمين . وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين ، واحتج بقوله عليه السلام : (قتال المؤمن كفر) . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر ، تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصديق رضى الله عنه : من تمسك بالاسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر الا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم ، بخلاف الواجب فى الكفار . وقال الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا الى استحلال كل ماحرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبى نسائهم وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله عليه السلام : خذوا على أيدى سفهائكم " "[1]

وقال القاضى أبوبكر بن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، والعمدة فى حرب المتأولين ، وعليها عول الصحابة ، واليها لجأ الاعيان من أهل الملة ، واياها عنى النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : (تقتل عمارا الفئة الباغية) قوله عليه السلام فى شأن الخوارج : (يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة). والرواية الاولى أصح ، لقوله عليه السلام (تقتلهم أولى الطائفتين الى الحق) وكان الذى قتلهم على بن أبى طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليا رضى الله عنه ، كان اماما ، وأن كل من خرج عليه باغ ، وأن قتاله واجب حتى يفيء الى الحق وينقاد الى الصلح .....

.....

---

(١) القرطبى ـ المصدر المذكور آنفا ـ جـ ١٦ ـ ص ٣١٧

وقوله تعالى (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله) :

يقول القرطبى (أمر بالقتال وهو فرض على الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضى الله عنهم عن هذه المقامات ،كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم ـ رضى الله عنهم ـ وصوب ذلك على بن أبى طالب لهم ـ رضى الله عنه ـ واعتذر اليه كل واحد منهم بعذر قبله منه .

ويروى أن معاوية رضى الله عنه لما أفضى اليه الأمر ، عاتب سعدا على ما فعل ،وقال له :لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ،ولا ممن قاتل الفئة الباغية . فقال له سعد : ندمت على تركى قتال الفئة الباغية . فتبين أنه ليس على الكل درك فيما فعل ، وانما كان تصرفا بحكم الاجتهاد واعمالا بمقتضى الشرع . "١" والله أعلم .

العدل فى الصلح :

وفى قوله تعالى (فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) :

يقول القرطبى : (ومن العدل فى صلحهم الا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال ، فانه تلف على تأويل . وفى طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء فى البغى . وهذا أصل فى المصلحة . وقد قال لسان الأمة : ان حكمة الله تعالى فى حرب الصحابة التعريف منهم لأحكام قتال أهل التأويل ، اذ كان أحكام "٢" قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

وقول الله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين) .

يقول الشافعى رحمه الله (فأمر الله تعالى جده أن يصلح بينهم بالعدل ولم يذكر تباعة فى دم ولا مال وانما ذكر الصلح آخرا كما ذكر الاصلاح بينهم أولا قبل الاذن بقتالهم فأشبه أن تكون التبعات فى الدماء والجراح وما تلف من الأموال ساقطة بينهم . وكما قال ابن شهاب عندنا قد كانت فى تلك الفتنة دماء يعرف فى بعضها القاتل والمقتول وأتلف فيها أموال ثم صار الناس الى أن سكنت

---

(١) الدرك (بفتح الراء وسكونها) : التبعة .

(٢) المصدر نفسه ـ ج ١٦ ـ ص ٣١٩ .

الحرب بينهم وجرى الحكم عليهم فما علمته أقتص من أحد ولا أغرم مالا أتلفه .

وقال الشافعي رحمه الله : وما علمت الناس اختلفوا في أن ما حووا في البغي من مال فوجد بعينه أن صاحبه أحق به .

ومن الأحكام التي تؤخذ من الآيات الكريمة هو : أنه اذا خرج على "١" الامام العادل طائفة باغية لاحجة لها ، قاتلهم الامام بالمسلمين كافة أو بمن يقوم بالكفاية ويسبق ذلك الدعوة الى الطاعة والدخول مع الجماعة ، فان رفضوا الدعوة الى الطاعة والدخول في الجماعة قوتلوا ، وفي قتالهم أحكام منها :
أنه لا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم ولا يذفف على جريحهم ، ولا تسبى ذراريهم ولا أموالهم . واذا قتل الامام العادل الباغي ، أو قتل الباغي الامام العادل وهو وليه لم يتوارثا . على أصل (ولا يرث قاتل عمدا على حال) . وقيل : يرث العادل الباغي قياسا على القصاص . والله أعلم .

ويقول القرطبي رحمه الله : (وما استهلكه البغاة والخوارج من "٢" دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخذوا به . وقال أبوحنيفة . يضمنون .

وللشافعي قولان . وجه قول أبي حنيفة أنه اتلاف بعد وان فيلزم الضمان .
ويقول القرطبي : والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مدبرا ولا ذففوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ، وهم القدوة .

وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ياعبدالله أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : لايجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها) فأما ما كان قائما رد بعينه .

وذكر الزمخشري في تفسيره (ان كانت الباغية من قلة العدد بحيث لامنعة لها ضمنت بعد الفيئة ماجنت وان كانت كثيرة ذا منعة وشوكة لم تضمن الا عند محمد بن الحسن رحمه الله فانه كان يفتي بأن الضمان يلزمها اذا فاءت "٣"

---

(١) كتاب الأم ـ الشافعي ـ جـ ٨ ـ ص ٢٥٥
(٢) ينظر القرطبي المصدر المذكور آنفا جـ ١٦ ـ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠
(٣) الزمخشري ـ تفسير ـ جـ ٣ ـ ص ٥٦٤

وفى هذا محض العدل اذ يتساوى الأمر بين الفئتين ورفع التمايز القائم على القلة والكثرة وذلك فى حين عداوتها وظلمها ولكن هنا للامام نظر فى الأمر ان وجد فى تطبيق الحكم جذوة لفتنة أو اشعال شر آخر الحكم وفى ذلك الجواز وذلك حفظا للمصالح ووحدة الكلمة • وهذا كله من أهداف الصلح المراد بين الفئتين •

وأما اذا كان الأمر بين أفراد أو جماعات قليلة والدولة المسلمة هى المسيطرة ففى هذا اقامة العدل ، القائم بالقسط بأن يرد الى كل فئة ماخسرت فيما كان قائما بعينه ، وتضمن الفئة الباغية الزيادة فيما استهلكته • والله أعلم •

وفصل الزمخشرى فى التفسير فقال : (وأما قبل التجمع والتجنيد أوحين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها فماجنته ضمنته عند الجميع •

فحمل الاصلاح بالعدل فى قوله تعالى (فأصلحوا بينهما بالعدل) على مذهب محمد واضح منطق على لفظ التنزيل • وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة القليلة العدد ، والذين ذكروا أن الخرض اماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ، ومراعاة القسط •

وفى هذه الآية لطيفة قد وقعت موقعها بينها صاحب الفخر [1] الرازى فى قوله (فان فاءت) بقتالهم اياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار الى أن من لم يخف الله ويغى لا يكون رجوعه بقتالكم الا جبرا •

ثم عقب عند قول الله تعالى (فأصلحوا بينهما بالعدل) ولم يذكر العدل فى قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا) يقول الرازى (لأن الاصلاح هناك بازالة الاقتتال نفسه وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، والاصلاح ههنا بازالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال (بالعدل) فكأنه قال : واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما ، لئلا يؤدى الى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى

---

(١) المصدر نفسه ـ ج ٣ ـ ص ٥٦٤

ثم يذكر الفخر الرازى فائدة أخرى يقول : اذا قال (فأصلحوا بينهما بالعدل) فأية فائدة فى قوله (وأقسطوا) يقول الفخر الرازى : : قوله فأصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الأمر بقوله (وأقسطوا) أى فى كل أمر مفض الى أشرف درجة وأرفع منزلة وهى محبة الله • والاقساط ازالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر ، والتركيب دال على كون الأمر غير مرضى من القسط والقاسط فى القلب وهو أيضا غير مرضى ولا معتد به ، فكذلك القسط •

ب ـ الأخـــوة :

ثم تسترسل الآيات فى قول الله تعالى (انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم) تتميما للارشاد وذلك لأنه لما قال (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) كان لظان أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم ، فأما اذا كان الخلاف بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالاصلاح ، وكذلك الأمر بالاصلاح هناك عند الاقتتال • وأما اذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الاصلاح فقال (بين أخويكم) وان لم تكن الفتنة عامة وان لم يكن الأمر عظيما كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى خلاف فاسعوا فى الاصلاح • "١"

وقد ذكر الطبرى فى تفسيره الجزء السادس والعشرين ص ١٢٧ فى معنى الآية (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ••••) قال رحمه الله : فان الله سبحانه أمر النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم الى حكم الله ، وينصف بعضهم من بعض ، فان أجابوا حكم فيهم بكتاب الله ، حتى ينصف المظلوم من الظالم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، فحق على امام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم ، حتى يفيئوا الى أمر الله ، ويقروا بحكم الله • "٢"

ثم بعد أن دعاهم الله للاصلاح بينهم على طريق الحق والعدل ورد الباقى الى كيان الجماعة المسلمة والدخول فى حظيرتها أتت الدعوى اليهم مرة أخرى باستجاشة القلوب والتذكير بوثائق الايمان الذى قام عليه المجتمع المسلم والرابطة القوية التى تفوق رابطة النسب وهى الأخوة الايمانية • وفى هذا يقول

---

(١) الفخر الرازى ـ جـ ٢٨ ـ ص ١٢٩
(٢) الطبرى ـ تفسير ـ جـ ٢٦ ـ ص ١٢٧

الفخر الرازى رحمه الله : عند قول الله تعالى (انما المؤمنون اخوه)
(قال بعض أهل اللغة الاخوة جمع الأخ من النسب والاخوان جمع الأخ من الصداقة ، فالله سبحانه وتعالى قال (انما المؤمنون اخوه) تأكيدا للامر واشارة الى أن ما بينهم مابين الاخوة من النسب ، والاسلام كالأب قال قائلهم :

أبى الاسلام لا أب (لى) سواه اذا افتخروا بقيس أوتميم

(ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من اخوة النسب ، فان أخوة [1] النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله اخوانا) . وفى رواية (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ها هنا ــ ويشير الى صدره ثلاث مرات ــ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) لفظ مسلم .....
.....

وفى الفخر تحليل جميل يقول عليه الرحمة (انما للحصر أى لا أخوة الا بين المؤمنين ، وأما بين المؤمن والكافر فلا ، لأن الاسلام هو الجامع ، ولهذا اذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر ، وأما الكافر فكذلك لأن فى النسب المعتبر الأب الذى هو أب شرعا ، حتى أن ولد الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر ، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الاخوة ، ولهذا من مات من الكفار وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ، ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث . فان قيل قد ثبت أن الأخوة للاسلام أقوى من الأخوة النسبية ، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب ، فلم لم يقدموا الأخوة الاسلامية على الأخوة النسبية مطلقا حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لأخوته من النسب ؟

نقول هذا سؤال فاسد ، وذلك لأن الأخ المسلم اذا كان أخا من النسب

---

(١) الفخر الرازى المصدر المذكور آنفا ــ جـ ٢٨ ــ ص ١٢٩

فقد اجتمع فيه اخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة ، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه (على رأى) فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين - والله أعلم "١"

وفى هذه الآيات دليل على أن البغى لا يزيل اسم الايمان لأن الله تعالى سماهم أخوة مؤمنين مع كونهم باغين • قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمل وصفين : أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشرك فروا • فقيل : أمنافقون ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا • قيل له : فما حالهم ؟ قال اخواننا بغوا علينا) • "٢"

ما توجيه الآيات :

وهذا الأصل الذى قام عليه نظام المجتمع المسلم فى فض الخصومات وانهاء جذور النزاع هو الأصل السابق لكل نظام من تجارب البشرية المتخبطة فى متاهات القوانين الوضعية والطفرات البشرية النابعة من الهوى والميول المادى المصلحى ، لذا كان للمنهج الاسلامى الكمال والبراءة من العيب والنقص لأنه المنهج البعيد عن الهوى والميول والنزوات التى هى من أسباب الانحراف ، فهو المنهج الذى فيه العدل ويحقق الأمن والاستقرار والكرامة والحرية لجميع بنى البشر لأنه من وضع عليم حكيم فلا يدخله نقص يعيبه ولا يدخله ميل أو هوى يجرفه عن جادة العدل والحق • وبهذا النظام الفريد وحده تتحقق السعادة للبشرية التائهة على سبل الضلال ، العمية عن رؤية الحق من غرورها وتجبرها وخروجها عن منهج ربها مع أن الطريق واضح بين مستقيم يلمح كالشمس فى واضحة النهار يناديهم منادى الحق فى كل صباح ومساء أن هذا صراط الحق فاتبعوه تسعدوا وتفلحوا • ولكن لا حياة لمن تنادى •

وفى النظام الاسلامى تحقيق لوحدة الجماعة وتآلفها وقيام الحب مكان البغضاء والشحناء ، والتعاون مكان التنافر والتباغض ، والاحترام المتبادل والتواضع الذى يسود المجتمع المسلم ، وفى هذا تحقيق لكل معانى الكرامة والحرية

---

(١) المصدر نفسه ـ جـ ٢٨ ـ ص ١٣٠

(٢) القرطبى ـ جـ ١٦ ـ ص ٣٢٣

والقوة والتكافل والتناصح والتعاون فى مجالات الخير وفيما يحقق للمجموعة بأسرها السعادة الكاملة • كما تحقق ذلك من قبل عند قيام المجتمع المسلم فكان حقيقة تطبيقية فى واقع الحياة وعملا منجزا فى تعامل الناس ، ولم يكن مجرد نظرية تلقى على الورق ولا تجد طريقها الى الواقع والحياة الحقيقية التى يسعد بها البشر ويحقق أمانيه • فقد تحقق المجتمع المثالى الذى قام على هذه القواعد والأسس والأنظمة الربانية فكان من هذا المجتمع النور الذى انطلق اشعاعه الى العالمين فأخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة رب العباد وخلص الناس من جبابرة استعبدوا الناس من دون الله وقهروهم لتسعد نفوسهم واستذلوهم لتبقى كرامتهم هم أنفسهم دون غيرهم فكانوا كالبهائم فى ظل الأنظمة الجائرة الظالمة النابعة من الهوى ، فأتى الاسلام بجملته فعرفهم كيف يعيشون وكيف يسعدون ولكنهم تاهوا عن طريقه بعد أن أبان لهم الطريق وجدوا به بعد أن بنى لهم العز وأقام لهم العدل • وتنكروا له بعد أن تقلبهم من البهيمية الى الانسانية السوية وأبوا الا أن يعودوا لما كانوا فكانت هذه الدول والحكومات والنظم التى نراها ونسمع عنها تتخبط ولا زالت تتخبط فى متاهات الطرق والسبل • طغمة حاكمة تستعبد ملايين البشر وتسجنهم فى سجنها الكبير ، انطلقت بالشعارات البراقة التى لمعت للشعوب وكأنها أحلام السعادة فكان لكل شعار رفعوه مدلوله فيما يخفيه وذلك لتحقيق مجتمع الحمير • وهذا ما تقوم عليه البشرية اليوم ، حيث لا أمن ولا استقرار ، اذلال وقهر واستعباد أفراد تسلطوا على البشر ليقولوا بلسان الحال قولة فرعون (أنا ربكم الأعلى) •

وتحقق لهم ما أرادوا على حساب هذه البشرية المعذبة (استخف قومه فأطاعوه)• وهذا ما نراه أمامنا وفى عصرنا استخفاف فاذلال فاستعباد فاستكانة فركون الى الأرض الى الذل والهوان ، استعمار مطلق بجيوش وبغير جيوش• استعمار أبناء البلد الواحد لبعضه وقد يكون أشد • يعلنون عن عدوهم أنه يفعل برعاياهم وشعبهم جميع أنواع التعذيب والتنكيل ، ويقيمون هم على ما ينكرون من تفنن وتخصص فى وسائل التعذيب وكبت الحريات وخنق الأنفس لكى لا يعلوا صوت فوق صوتهم ولا نداء فوق ندائهم ، فتحوا للعلم أبوابا وحكموا بالجهل الأمم ، فالله الله يا هذه البشرية المعذبة المسكينة الحائرة التائهة الضالة متى تهتدى الى طريق ربك فتسعدى ويعود لك حقك

المسلوب وكرامتك المهانة وحريتك المفقودة انه الطريق الوحيد لسعادتك هو هدى رب العالمين • ففيه السعادة والكرامة والحرية والأمن والعدل والمساواة ووقتها يعلو صوت الحق يخفق فوق العالمين •

ولم يقف النظام الاسلامى عند هذه القاعدة الاصلاحية الاجتماعية — المتكاملة وحدها وانما راعى كل نواحى الحياة بحيث جعل لكل شىء ضوابطه ومقاييسه وموازينه فلا يتعدى انسان على انسان ولا فرد على فرد ولا جماعة على جماعة ولا فئة على فئة ولا طائفة على طائفة لكل فرد ولكل جماعة ولكل طائفة الحصانة الكاملة والسياج القوى المتين الذى يبقى لكل انسان كرامته ، ويحفظ عليه حرمته ويصون له حريته من أن تمس من قريب أو بعيد • وبهذا المنهج المثالى يكون المجتمع النظيف المتكامل فى كل مقومات القوة والسعادة ، وهذا ما يسعى اليه البشر ولا يتحقق لهم الا بظل منهج الله قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ،عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهم ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ،بئس الاسم الفسوق بعد الايمان • ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون " أى (لايطعن بعضكم بعضا ولا تداعوا بألقاب سيئة بئس أن تلقب أخاك بالفسوق فتصفه بما يحط من قدره بعد ما اتصفتم بالايمان وتحليتم بأخلاقه)• "١"

ولقد علمنا مما مر من الآيات الكريمة من هذه السورة العظيمة التى تمثل المنهج المتكامل فى التوجيه والارشاد فى جميع نواحى الحياة وذلك ليقوم المجتمع المثالى فى ظل المنهج المثالى الفريد • فتوالت فى السورة الارشادات والتوجيهات فبعد الارشاد الى ماينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبى صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ،بيّن ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ،سواء كان حاضرا أو غائبا • ففى حضوره لا يسخر منه ولا يلتفت اليه بما ينافى التعظيم • وذلك من السخرية واللمز والنبز فكل هذا مما لا ينبغى لمؤمن أن يفعله مع أخيه المؤمن وذلك لصيانة المجتمع وحفظه فى حريته وكرامته وحرماته لأن حرمة الفرد المؤمن فى المجتمع المؤمن مصونة محفوظة ومساسها مساس للمجتمع بأسره وفى ذلك ما مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين

---

(١) قاموس قرآنى — جمع وتأليف حسن محمد موسى ص ٣٢٩ ج ١ مطبعة خليل ابراهيم — الاسكندريه

فى تواد هم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) •

وقال عليه الصلاة والسلام (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وفى الحديث أيضا " لا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله اخوانا " [١] • قال الله تعالى (أذلة على المؤمنين) سورة المائدة : ٥٤

كل هذا يؤكد الروابط القوية والقيم المثالية التى يقوم عليها المجتمع المسلم وفى هذا تحقيق لأعلى ما عرفته البشرية وادعته من معانى العدل والحرية والمساواة ، فان هذه المعانى الاجتماعية والتوجيهات التربوية لهى المثال الفريد فى المجتمع المسلم الذى يقوم على صون الحريات وحفظ الحقوق والحرمات والابقاء على كرامة الفرد سليمة من أن تمس من قريب أو بعيد • وفى النداء القرآنى الحبيب الذى يهيب بالمؤمنين أن يقعوا فيما يورث البغضاء والشحناء بينهم فينهاهم عن أن يسخر قوم من قوم أى رجال من رجال فلعل المسخور منه أفضل عند الله من الساخر ولا نساء من نساء فلعلهن النساء المسخور منهن أفضل فى ميزان الله تعالى •

وفى هذا اظهار لميزان البشر الخاطىء ، أمام ميزان الله تعالى ، لأن القيم والمثل التى يراها البشر من رجال ونساء ليست هى القيم الحقيقية ، وقد تختلف عند البشر من مجتمع لآخر ، فما يستحسنه قوم يعابه آخرون لأن منطلقات البشر تنطلق غالبا من المصالح الشخصية أكثر من انطلاقها من المصالح العامة ، ولذا يلعب الهوى دوره وتفسد الأمور وتنطلق النفوس البشرية فى حمأة الجهل والغى والفساد فى أمراض خفية باطنية من كبر وعجب وافتخار وتعالى على عباد الله من غير حق وذلك من خلال النظر المحدود والتقديرات الخاطئة فترى الغنى يحتقر الفقير لفقره ولفقره فقط ، والرجل القوى يتكبر ويتجبر ويتعالى على الرجل الضعيف والسوى من صاحب العاهة والذكى من الساذج والمرأة الجميلة ممن هى دونها فى الجمال أو بأثاث بيتها على من ليس عندها مثله أو تتعالى بزوجها الغنى على من ليست كذلك • وبهذه التقديرات البشرية الخاطئة بأن مثل هذه الأمور هى القيم والمثل تعم الفوضى وينشأ الخلاف ويسود الحقد والبغضاء والشحناء مكان الحب والالفة والسلام • ولذا كانت هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هى

---

(١) البخارى وغيره •

المقياس الحقيقي • فميزان الله وحده هو الذي يرفع ويخفض بغير هذه الموازين البشرية المتخبطة الخربة •

فالقرآن في توجيهاته يستجيش عاطفة الأخوة الايمانية التي بنى عليها المجتمع النظيف ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة فمن يلمزها فكأنما لمز نفسه " ولا تلمزوا أنفسكم " واللمز : العيب • ومن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها ويشعرون أن فيها استهانة بهم واستخفافا ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه المؤمن • وقد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء وألقابا كانت في الجاهلية لأصحابها تصفهم بوصف ذميم ، فكان صلى الله عليه وسلم يحسه المرهف وقلبه الكريم الذي جعله يدفع عن كل مؤمن ما يسوءه رحمة منه ورأفة صلى الله عليه وسلم — وذلك ليبني المجتمع المتكامل في قيمه وأخلاقه وسلوكه ومقوماته العالية السامية • وقد تم له — صلى الله عليه وسلم — ما أراد برعاية الله وتأييده •

والآية الكريمة بعد أن أشارت الى القيم الحقيقية في ميزان الله تعالى وبعد أن استنهضت بهم الهمم وأثارت بهم الشعور بالأخوة الايمانية التي هي كالنفس الواحدة ، فحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم والفسوق عنه بالسخرية واللمز والتنابز " بئس الاسم الفسوق بعد الايمان " •

يقول سيد قطب عليه الرحمة " فهو شيء يشبه الارتداد عن الايمان ! وتهدد باعتبار هذا ظلما ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : " ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون " وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم)" ١ " •

وفي هذه الآداب النفسية العالية رسخت قواعد المجتمع المثالي في كل نواحي الحياة ووجهت الفرد لأن ينشغل بنفسه عن غيره ويسعى لاصلاح عيوبه قبل أن ينظر في عيوب الآخرين • ولقد قيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره • قال الشاعر :

المرء ان كان عاقلا ورعا ... أشغله عن عيوبه ورعه
كما السقيم المريض يشغله ... عن وجع الناس كلهم وجعه

---

(١) في ظلال القرآن — سيد قطب — جـ ٢٦ — ط • الخامسة

وقال آخر :

لا تكشفن مساوى الناس ما ستروا
فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا
ولا تحب أحدا منهم بما فيكا

وقد ذكر القرطبى فى تفسير آيات الأحكام — يقول :

(وقع من ذلك مستثنى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوزته الأمة واتفق على قوله أهل الملة • قال ابن العربى : وقد ورد لحمر الله من ذلك فى كتبهم مالا أرضاه فى صالح جزرة ، لأنه صحف " خرزة " فلقب بها ، وكذلك قولهم فى محمد بن سليمان الحضرمى : مطيّن ، لأنه وقع فى مطيّن ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغا فى الدين • وقد كان موسى بن على بن رباح المصرى يقول : لا أجعل أحدا صغر اسم أبى (فى حل) ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين • والذى يضبط هذا كله : أن كل ما يكرهه الانسان اذا نودى به فلا يجوز لأجل الأذية • والله أعلم •

وعلى هذا المعنى ترجم البخارى رحمه الله تعالى فى (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح • فى " باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شين الرجل " قال : وقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما يقول " ذو اليدين " قال أبو عبد الله بن خويز منداد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الانسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ، ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم لقب عمر — رضى الله عنه — بالفاروق — وأبا بكر — رضى الله عنه — بالصديق وعثمان — رضى الله عنه — بذى النورين • وخزيمة — رضى الله عنه — بذى الشهادتين ، وأبا هريرة — رضى الله عنه — بذى الشمالين وبذى اليدين وفى أشباه ذلك .....

.....

ولهذا كانت التكنية من السنة ، والأدب الحسن ، قال عمر — رضى الله عنه — : أشيعوا الكنى فانها منبهة • ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله — رضى الله عنهم — وقل من

المشاهير فى الجاهلية والاسلام من ليس له لقب • ولم تزل هذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلها — من العرب والعجم تجرى فى مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير — قال الماوردى : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره • وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم — عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .....

وقد سئل عبدالله بن المبارك عن الرجل يقول : حميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحميد الأعرج ، ومروان الأصفر ، فقال : اذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلابأس به •)"١"

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم) •

الظن وحكمه :

ومن اتمام البناء وزيادة الضوابط التى يقوم عليها المجتمع السليم دخل فى تربية بواطن الناس وهواجسهم لتتهذب عن أن تقع فى أمر مريب يثير الشك ويوقع العداوة القائمة على مجرد الحدس ولذلك كان للظن السبب الأكبر فى تبنى القبائح واثارة الضغائن واظهار الصور على غير حقيقتها نتيجة الظن الذى لا يقوم على يقين ، فلابد من أخذ الأمور على حقيقتها جلية واضحة ليس فيها أى التباس أو غموض ، ولا يحقق ما يراه من الناس فقد يكون ما رآه خطأ ولذلك كان الأمر بالاجتناب لكثير الظن قال تعالى (اجتنبوا كثيرا) • وقوله تعالى : (ان بعض الظن اثم) • وذلك فيه الاشارة الى الأحوط والظن ينبغى بعد اجتهاد تام وتوثق شديد • وان اعتماد الظن يسوق الى ما هو أشد وأدهى وذلك بالتتبع لما يظنه ليكشف عنه حقيقة ويعلم منه ما لاحظته عليه ويتأكد من عيب مستور ليفضحه عن طريق التجسس ، وفى ذلك المقت الشديد لما فيه من التتبع لعوراة الناس وكشفها وفى هذا ينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم •

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا — ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله

(١) القرطبى — تفسير — المصدر المذكور آنفا — ج ١٦ — ص ٣٢٩ — ٣٣٠

اخوانا » لفظ البخارى . قال علماؤنا : فالظن هنا وفى الآية هو التهمة . ومحل التحذير والنهى انما هو تهمة لا سبب لها يوجبها كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك . وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث مع تعمد الكذب الذى لا يستند الى ظن أصلا أشد من الأمر الذى يستند الى الظن ، فللاشارة الى أن الظن المنهى عنه هو الذى لا يستند الى شىء يجوز الاعتماد عليه فيعتمد عليه ويجعل أصلا ويجزم به ، فيكون الجازم به كاذبا وانما صار أشد من الكاذب لأن الكذب فى أصله مستقبح مستغنى عن ذمه ، بخلاف هذا فان صاحبه بزعمه مستند الى شىء فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة فى ذمه والتنفير منه ، واشارة الى أن الافتراء به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالبا ووضوح الكذب المحض) . "١"

وقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن اسماعيل بن أمية رفعه (فى تحفة الأحوذى ذكر ـ اسماعيل بن عليه ـ) " ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيره والظن والحسد . قيل فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : اذا تطيرت فلا ترجع ، واذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ " .

وان الخلاف والنزاع وعدم الثقة فى الآخرين يؤدى الى سوء الظن ، ومن ثم الى التجسس الذى لا ينبغى أن يكون من مسلم لأن للناس حرمة لا يجوز انتهاكها فى تجسس أو غيره من تتبع للعورات حتى ولو كان الانسان ممن يفعل بعض الآثام الخاصة ، ولكنه مستترا بها غير مجاهر .

وقد ثبت عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يجعل تتبع العورات من خصال النفاق فعن ابن عمر قال : صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر فنادى بصوت رفيع فقال " يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه ! لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله " "٢"

ما قيل فى التجسس :

وأصل كلمة التحسس التى هى من الحاسة احدى الحواس الخمس والجيم من الجس بمعنى اختبار الشىء باليد وهى احدى الحواس فتكون التى

---

(١) فتح البارى ـ جـ ١٠ ـ ص ٤٨٢

(٢) الترمذى وابن ماجه بنحوه

بالحاء أعم ، وقال ابراهيم الحربي : هما بمعنى واحد وقيل بالجيم البحث عن عوراتهم وبالحاء استماع حديث القوم ..... وقيل بالجيم البحث عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر ، وبالحاء البحث عما يدرك بحاسة العين والاذن ورجح هذا القرطبي ، وقيل بالجيم تتبع الشخص لأجل غيره ، وبالحاء تتبعه لنفسه وهذا اختيار ثعلب " (١)

وقد ذكر الراغب الأصفهاني في ـ كتاب الجيم ـ قال : جس : قال الله تعالى " ولا تجسسوا " أصل الجس مسّ العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم وهو أخص من الحس فان الحس تعرف ما يدركه الحس والجس تعرف حال ما من ذلك ومن لفظ الجس اشتق الجاسوس " (٢)

ويقول في فتح الباري (ويستثنى من النهي عن التجسس ما لو تعين طريقا الى انقاذ نفس من الهلاك مثلا كأن يخبر ثقة بأن فلانا خلا بشخص ليقتله ظلما ، أو بامرأة ليزني بها ، فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذرا من فوات استدراكه ، نقله النووي عن " الأحكام السلطانية " للماوردي ـ واستجاده ، وأن كلامه : ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات ولو غلب على الظن استسرار أهلها بها الا هذه الصورة) " (٣)

ولهذا كان لحرمات الناس القدر الأعظم وذلك للحفاظ عليها ، ومن أشد التحريم أن يطلع أحد على قوم في بيتهم من غير اذن منهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " من اطلع في بيت قوم بغير اذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه " (٤) ...

.....

انه العدل الكامل وذلك بأن يقام لحرمة الانسان هذه المكانة العظيمة ، بحيث تجعله مصونا من كل غيلة وغدر لأن نظرة الاختلاس على أناس يعيشون داخل حماهم وفي بيوتهم آمنين مطمئنين ، فتأتي هذه النظرة البغيضة نظرة الغدر ،

---

(١) فتح الباري ـ المصدر المذكور آنفا ـ ج ١٠ ـ ٤٨٢ ـ
(٢) المفردات في غريب القرآن ـ أبو القاسم حسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني ـ ٩٣ ـ
(٣) فتح الباري ـ المصدر المذكور آنفا ـ ج ١٠ ـ ٤٨٢
(٤) متفق عليه

لفضح ما أخفاه هؤلاء الناس من أمورهم الخاصة التى لا يرغبون بأن يطلع عليها الناس. وفى هذا العمل الذى يقوم به هذا المختلس لكشف سر الناس والتطلع على عوراتهم أمر عظيم ، تقوم عليه مخاطر اجتماعية وخلقية ضارة فى الفرد وفى الجماعة على السواء ، وذلك مما يؤدى أحيانا الى الفتنة الحالقة التى قد تؤدى بالمجتمع الى أسوأ العواقب ، ولذلك كان لهذا الأمر حدوده .

أدب فى الاستئذان . وفى كل شىء من خاصة الانسان لا يجوز دخوله أو استعماله الا باذنه وموافقته . انها لأسس سليمة وقويمة تحفظ للناس حرمتهم فى المجتمع المسلم والمجتمع المسلم وحده هو الذى يحفظ حرمات الناس فى حضورهم وغيبتهم ، وحتى فى هواجس النفوس من أن تبغى وتظن ما ليس فى ذلك حق فأى قانون وأى نظام لاتباعه هذه الحرمة وهذه الكرامة انه الاسلام والاسلام وحده وليس ذلك مقتصرا على النظر وانما على السمع وذلك بأن يتسمع حديثهم بغير علم منهم ولا رضا .

قال عليه الصلاة والسلام (من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون ، صب فى أذنيه الآنك[1] يوم القيامة)[2] . وان المنع لم يكن للأفراد دون الحكام ولذا شرع الاستئذان للجميع ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم)[3] .

وفى الحديث الذى رواه احمد والترمذى " أيما رجل كشف سترا فأدخل بصره قبل أن يؤذن له فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه " قال الترمذى حديث غريب . وقال المنذرى فى الترغيب بعد ذكر هذا الحديث : رواه احمد ورواته رواة الصحيح الا ابن لهيعه .

---

(١) الآنك : هو الرصاص المذاب
(٢) البخارى وغيره
(٣) سورة النور آيه ـ ٢٧ ، ٢٨ ـ

وهذا نهى عام عن التجسس وتتبع العورات ، يشمل الحكام والمحكومين وفى الحديث الذى رواه أبو داود وابن حبان فى " صحيحه " فيما رواه معاوية عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال " انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم " .

وينبغى للفرد أن يتجنب الأماكن المريبة فلا يوقع نفسه فى أمر ليس له فيه صلة وذلك من الابتعاد عن مجالسة الفساق وأهل المعاصى لأن صحبة هؤلاء قد تسىء اليه فى سمعته ، قال عليه الصلاة والسلام " رحم الله امرءا جب الغيبة عن نفسه " .

وقال عليه الصلاة والسلام " مثل القرين الصالح والقرين السوء كبائع المسك ونافخ الكير ..... " الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام " اتقوا الشبهات فانه من يتق الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ـ كالراعى يحوم حول الحمى ـ فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه "

وقال الشاعر :

اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقد قيل ـ " المجالسة مجانسة "

وقيل فى أمثال العرب ـ ان الطيور على أشكالها تقع ـ

اذن فلابد أن يكون هناك تكافل وتعاون بين أفراد المجتمع المتكامل وذلك بأن يبرىء كل فرد من أفراد المجتمع نفسه من الشكوك والريب لكى لا يثير عند الآخرين الشكوك والظنون . وبذلك تطهر البواطن كما تطهر الظواهر ، ويصلح أمر المجتمع فى دينهم ودنياهم .

ومما رواه أبو داود من رواية أبى امامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان الأمير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم "

فبهذه الأخلاق وعلى هذه الأسس بنى الاسلام اتباعه ، فكان المجتمع

النظيف المثالى الذى لا تداس فيه كرامة ولا تنتهك فيه حرمة ولا يكشف فيه ستر أو يخرق • وهذا للحاكم والمحكوم على السواء ، لا يستطيع حاكم أن يتعدى على حرية فرد ، ولا أن ينتهك حرمته مهما كانت الظروف بخلاف القوانين الوضعية التى آمن بها حكام ظنوا أنفسهم أنهم ملكوا العباد والبلاد ،فجوزوا لانفسهم كل شىء عجرفة وغطرسة دون قيد بمثل أو نظام أو حرمة لبشر •

وعلى هذا يكون المنهج الربانى هوالمنهج الوحيد الذى يكفل لبنى البشر حرياتهم ، ويحفظ عليهم كرامتهم ، ويحمى حرماتهم •

قال زيد بن أسلم : خرج عمر وعبد الرحمن يعسان اذ تبينت لهما نار فاستأذنا ففتح الباب ، فاذا رجل وامرأة تغنى وعلى يد الرجل قدح ، فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين • قال عمر : فمن هذه منك ؟ قال امرأتى ، قال فما فى هذا القدح ؟ قال ماء زلال ، فقال للمرأة وما الذى تغنين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل واسود جانبه
وأرقنى أن لا خليلا ألاعبه
فوالله لولا الله أنى أراقبه
لزعزع من هذا السرير جوانبه
ولكن عقلى والحياء يكفنى
وأكرم بعلى أن تنال مراكبه

ثم قال الرجل : ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين ! قال الله تعالى "ولاتجسسوا" قال صدقت •

قال القرطبى : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل ، لأن عمر لا يقر على الزنى ، وانما غنت بتلك الابيات تذكارا لزوجها ، وأنها قالتها فى مغيبة عنها • والله أعلم •

ولذلك نرى فى نظام الاسلام الحفاظ الكامل على حرمات الاشخاص فى الحضور والغياب على حد سواء •

ومن هذه الآية الكريمة والأحاديث الشريفة ما يتعاضد ويقوى بعضه بعضا فى انكار التجسس ومقاومة هذا لانه عمل دنىء من الناحية الأخلاقية وذلك لما فيه

من هتك للحرمات وكشف للسوات وتتبع للعورات ، فان الاسلام يحرمه ويقاومه لأنه يتنافى مع مبادئه الأساسية ومخالف لنظامه الاجتماعى ، لأن الناس فى المجتمع الاسلامى يعيشون آمنين على أنفسهم ، آمنين على كل شىء يمس كيانهم الخاص والعام . فلا يوجد أى مبرر مهما يكن لانتهاك حرمات الناس فى المجتمع المسلم فالناس يؤخذون بظواهرهم ولا يجوز فى حال من الأحوال أن نتتبع بواطنهم وانما يعاقبون ويحاسبون من قبل الحاكم بما ظهر منهم من مخالفات وجريمة ثابتة عليهم فحرمة المسلم أعظم عند الله تعالى من حرمة بيته فكيف بهؤلاء الناس الذين ضلوا عن منهج الله وشريعة الله ، ويدعون أنهم دعاة خير وسلام وأمن وحرية ومساواة ورد مظالم فكيف بهم يتجرأون على حرمات الناس من غير قيد ولا ضابط .

ولكن هناك أمور يباح بها تقصى الأخبار والتجسس وذلك فيما تقتضيه مصلحة المسلمين وذلك بأن نرسل العيون الى الكفار فى حالة الحرب والسلم على السواء ، وذلك لنبقى على صلة فى أخبارهم لتجنب كيدهم ومكرهم مخافة التآمر والضرر فى كيان الأمة المسلمة ، والدولة المسلمة . فهذا أمر تقوم عليه مصالح للمسلمين .

أما التجسس على أفراد المجتمع المسلم فأى مصلحة تقوم على ذلك . وأخذهم فى أى كلمة يتكلمونها ـ كم للأفواه وكبت للانفاس وذلك باسم الحرية والشعارات البراقة المزيفة . انها الجاهلية المقيتة وحدها .

حكم الجاسوس :

ومن الأحاديث الواردة فى الجاسوس وحكمه :

عن سلمة بن الأكوع قال : " أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عين وهو فى سفر فجلس عند بعض أصحابه يتحدث ، ثم انسل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم أطلبوه فاقتلوه ، فسبقتهم اليه فقتلته ، فنفلنى سلبه " رواه احمد والبخارى وابو داود .

وعن فرات بن حيان " أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمر بقتله ، وكان ذميا ، وكان عينا لأبى سفيان وحليفا لرجل من الأنصار ، فمر بحلقة من الأنصار فقال : انى مسلم ، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله انه يقول انه مسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان منكم رجالا نكلهم الى

ايمانهم ، منهم فرات بن حيان " رواه احمد وابو داود ، وترجمة يحكم الجاسوس الذمى " .

وعن على رضى الله عنه قال " بعثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا ، حتى انتهينا الى الروضة ، فاذا نحن بالظعينة ، فقلنا اخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى من كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة الى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا حاطب ماهذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل على " ، انى كنت امرأ ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت اذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ومافعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لقد صدقكم ، فقال عمر : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : انه قد شهد بدرا ، ومايدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم " متفق عليه .

وفى الأحاديث التى مرت دليل على قتل الجاسوس . قال النووى : فيه قتل الجاسوس الحربى الكافر وهو باتفاق ، وأما المعاهد والذمى فقال مالك والأوزاعى : ينتقض عهده بذلك . وعند الشافعية خلاف . أما لو شرط عليه ذلك فى عهده فينتقض اتفاقا . وحديث فرات المذكور فى الباب يدل على جواز قتل الجاسوس الذمى . وذهبت الهادوية الى أنه يقتل جاسوس الكفار والبغاة اذا كان قد قتل أو حصل القتل بسببه وكانت الحرب قائمة ، واذا اختل شىء من ذلك حبس فقط (١) .....
.....

ومن الحديث الذى روى عن على رضى الله عنه فى (قوله انه قد شهد بدرا) ظاهر هذا أن العلة فى ترك قتله كونه ممن شهد بدرا ، ولولا ذلك لكان مستحقا للقتل ، ففيه متمسك لمن قال : انه يقتل ولو كان من المسلمين " ، " وهو

(١) نيل الأوطار ـ الشوكانى ـ جـ ٨ ـ ص ٩ ـ ١٠

الراجح والله أعلم لأن مثل هذا العمل يقوم عليه خطر عظيم ليس على كيان فـرد ى وانما على كيان الأمة بكاملها • ولما كان من الضرورة الحفاظ على كيان الأمة المسلمة فصاحب هذا الجرم العظيم من الخيانة يستحق القتل وفى عمله ما يشير الى مـرض دفين فى نفسه وقد يكون منافقا يظهر ايمانه وفى هذا الضرر الكبير على الجماعة المسلمة والأمة المسلمة •

وبالنسبة للعفو عن حاطب لخاصية له كانت سببا فى العفو عنه وليسـت حكما عاما • والله أعلم •

معنـى الغيبـة :

قال الله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا •••) الآية •
ثم يأتى التأكيد على الأسس السابقة من الحفاظ على عرض المؤمن وكيانه وحرمتـه وذلك فى غيبته كما تحفظ له فى حضوره (والغيبة هى أن تذكر الرجل بما فيـه فان ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان ثبت المعنى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال / أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسولـه أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قال أرأيت اذا كان فى أخى ما أقول فقال : ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته • يقال اغتابه اغتيابا اذا وقـع فيه والاسم الغيبة وهى ذكر العيب بظهر الغيب ، قال الحسن الغيبة ثلاثة أوجه : كلها فى كتاب الله تعالى • الغيبة والافك والبهتان ، فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه ، وأما الافك فهو أن تقول فيه ما بلغك عنه ، وأما البهتـان فهو أن تقول فيه ما ليس فيه) • ولا خلاف أن الغيبة من الكبائر • "١"

ومن اغتاب أحدا فليتب الى الله عز وجل وهل يستحل المغتاب • فيـه خلاف فقالت فرقة ليس عليه استحلاله وانما هى خطيئة بينه وبين ربه واحتجـت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس ذلك مظلمة يستحلهـا منه وانما المظلمة ما يكون فى المال واليدن ، وقالت فرقة هى مظلمة وكفارتهـا الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته ، وقالت فرقة هى مظلمة وعليه الاستحلال منهـا واحتجت بقول النبى صلى الله عليه وسلم (من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عـرض أو مال فليتحلله منها من قبل أن يأتى يوم ليس فيه هناك دينار ولا درهـم

---

(١) الفتوحات الالهية ـ ص ١٨٣ ـ ١٨٤

يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته " خرجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وغير ذلك من الأحاديث) . "١"

وفى هذه الأقوال الثلاثة تفنيد : مع العلم بأن الغيبة أمر عظيم ، واعتداء كبير وذلك بالتعدى على حرمته وعرضه وشرفه . ولذلك لما كان الأمر بهذا القدر من الأهمية الذى قد يترتب عليه أمور كثيرة فيما لو علم الشخص بما قيل عنه وما ناله المغتاب منه فقد يؤدى الأمر الى الخصام والنزاع الذى قد يؤدى بدوره الى فتنة كبيرة .

ولذلك فلابد أن ننظر فى الأمر قبل الميل الى قول فرقه وترجيح قولها على غيرها بأنه اذا كان الكلام المقال لا يقوم عليه عظيم أهمية ويعرف المغتاب بأنه لو كاشفه بما قاله عنه لا يحدث أمر فيه شر أكبر فيستبيح الرجل . ولما كان الأمر غالبا ومتوقعا بأنه سوف يكون أمر محظور منه فقول القائلين بالاستغفار لصاحبها الذى اغتابه . والله أعلم .

ويمكن أن يجمع هذا بالقول الأخير ولكن يأخذ استباحة عامة والله أعلم.

ولما كانت الغيبة لها دوافع نفسية قوية وقد تكون هذه الدوافع أقوى من الدوافع الجنسية احيانا وهذا الدافع هو حب الذات وكذلك حب الحقد والحسد اذا استعر فى قلب انسان كانت دوافعه أعظم والانطلاق بالكلام أسهل لأن أداة الكلام أسهل استعمالا بينما أداة الزنى بينها وبين التحقيق موانع وحوائل. ومن هنا يكون القول بأن الغيبة أشد من الزنى جرما لما فيه من الضرر الكثير . والحق أن كلاهما فيه جريمة شنيعة واثم عظيم . والله أعلم .

ثم يأتى التشبيه فى قول الله تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) . مثل الله تعالى الغيبة بأكل لحم الميت ، فأكل لحم الانسان بدون موت مستقذر فزاد فى الاستقذار كونه ميتا ، قال ابن عباس :
(انما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر وكذا الغيبة حرام فى الدين وقبيح فى النفوس. وقال قتاده كما يمتنع أحدكم أن

---

(١) المصدر السابق ـ ١٨٤ ـ

يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا • واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية • قال الشاعر :

فان أكلوا لحمي وفرت لحومهم وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا "١"

وعبارة الخطيب (في هذا التشبيه اشارة الى أن عرض الانسان كدمه ولحمه لأن الانسان يتألم قلبه من قرض العرض كما يتألم جسمه من قطع اللحم ، وهذا من باب القياس الظاهر لأن عرض الانسان أشرف من لحمه ودمه فاذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الانسان لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الاولى لأن ذلك أشد ألما وقوله لحم أخيه أكد في المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم عدوه وفي قوله ميتا اشارة الى دفع واهم ، وهو أن يقال الشتم في الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه فلا يؤلم فيقال أكل لحم الأخ وهو ميت أيضا لا يؤلم ، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع لتألم فان الميت لو حس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى لطيف وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمي ميتا ولا يحل أكله الا للمضطر بقدر الحاجة • والمضطر اذا وجد لحم الشاة الميتة أو لحم الآدمي لم يأكل لحم الآدمي ، فكذلك المغتاب ان وجد لحاجته معدلا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب • ١ • هـ "٢"

أحكام في الغيبة :

فأما ما يترتب عليه حكم شرعي فلا يدخل في الغيبة ولو كرهه المحدث عنه ، ويدخل في ذلك ما يذكر لقصد النصيحة من بيان غلط من يخشى أن يقلد أو يغتر به في أمر ما ، فلا يدخل ذكره بما يكره من ذلك في الغيبة المحرمة كما سيأتي •

وقد ترجم البخاري في باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب عند الحديث الآتي :

حدثنا صدقة بن الفضل أخبرنا ابن عيينه سمعت ابن المنكدر سمعت عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته قالت " استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : ائذنوا له ، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة • فلما دخل ألان له الكلام • قلت يا رسول الله قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام قال : أي عائشة ، ان شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه " .....

(١) القرطبي ـ ج ١٦ ـ ص ٣٣٥

(٢) الفتوحات الالهية ـ ص ١٨٤ ـ ١٨٥

قد نوزع فى كون ما وقع من ذلك غيبة ، وانما هو نصيحة ليحذر السامع ، وانما لم يواجه المقول فيه بذلك لحسن خلقه صلى الله عليه وسلم . ولو واجه المقول فيه بذلك لكان حسنا ، ولكن حصل القصد بدون مواجهة . والجواب أن المراد أن صورة الغيبة موجودة فيه وان لم يتناول الغيبة المذمومة شرعا ، وغايته أن تعريف الغيبة المذكور أولا هو اللغوى ، فاذا استثنى منه ماذكر كان ذلك تعريفها الشرعى ، وقوله فى الحديث : " ان شر الناس " استئناف كلام كالتعليل لتركه مواجهته بما ذكره فى غيبته ، ويستنبط منه أن المجاهر بالفسق والشر لا يكون ما يذكر عنه من ذلك من ورائه من الغيبة المذمومة ، قال العلماء : بل تباح الغيبة فى كل غرض صحيح شرعا حيث يتعين طريقا الى الوصول اليه بها : كالتظلم والاستعانة على تغيير المنكر ، والاستفتاء والمحاكمة ، والتحذير من الشر ، ويدخل فيه تجريح الرواة والشهود ، واعلام من له ولاية عامة بسيرة من هو تحت يده ، وجواب الاستشارة فى نكاح أو عقد من العقود ، وكذا من رأى متفقها يتردد الى مبتدع أو فاسق ويخاف عليه الاقتداء به . وممن تجوز غيبتهم من يتجاهر بالفسق أو الظلم أو البدعة .

ومما يدخل فى ضابط الغيبة وليس بغيبة ماتقدم تفصيله من ذكر ما غلب على أوصاف الناس وتعريفهم وقد تقدم فيستثنى أيضا . والله أعلم . "١"

وذكر القرطبى فى كتابه " الجامع لأحكام القرآن " قال :
ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر ، فان فى الخبر " من ألقى جلباب الحياء فلاغيبة له " وقال صلى الله عليه وسلم " اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس " . فالغيبة اذن فى المرء الذى يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمه : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والامام الجائر . وقال الحسن لما مات الحجاج : اللهم أنت أمته فاقطع عنا سنته ـ وفى رواية شينه ـ فانه أتانا أخيفش أعيمش ، يمد بيد قصيرة البنان ، والله ما عرق فيها غبار فى سبيل الله ، يرجل جمته ، ويخطر فيبى مشيته ، ويصعد المنبر فيهدر حتى تفوته الصلاة . لا من الله يتقي ، ولا من الناس يستحى ، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاة أيها الرجل . ثم يقول الحسن هيهات ! حال دون ذلك السيف والسوط .

---

(١) فتح البارى ـ جـ ١٠ ـ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢

وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البدع غيبة . وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول فلان ظلمني أو غصبني أو خانني أو ضربني أو قذفني أو أساء الي " ؛ ليس بغيبة ؛ وعلماء الأمة على ذلك مجمعة . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك " لصاحب الحق مقال " وقال : " مطل الغني ظلم " وقال : " لي الواجد يحل عرضه وعقوبته " .

ومن ذلك الاستفتاء كقول هند للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، فآخذ من غير علمه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " نعم فخذي " . فذكرته بالشح والظلم لها ولولدها ؛ ولم يرها مغتابه ، لأنه لم يغير عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفتيا لها .

وكذلك اذا كان في ذكره بالسوء فائدة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم (عندما استشارته فاطمة بنت قيس بالزواج) فقال : أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم "١" فلا يضع عصاه عن عاتقه " .
فهذا جائز وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس بهما "٢" "٣"

ميزان الله تعالى في البشر هو التقوى :

وبعد هذه النداءات المتكررة التي خالطت شغاف القلوب المؤمنة لتقرر في واقعها القواعد الأساسية والنظم المثالية لكيان المجتمع النظيف المتكامل في جميع مقوماته وأسسه وعاداته وتقاليده سلمه وحربه على منهج الله القويم وصراطه المستقيم . بعد هذه الأسس والقواعد يأتي النداء العام والقاعدة العامة التي تقوم البشر في ميزان الله لتجمع الجنس البشري وترده الى الأصل الواحد الذي منه نشأ ، وتهدم

---

(١) أبو جهم : هو ابن حذيفة ابن غانم القرشي . وقوله " لا يضع عصاه " أي أنه ضراب للنساء . وقيل : كناية عن كثرة أسفاره ؛ لأن المسافر يحمل عصاه في سفر .
(٢) هي أخت الضحاك بن قيس ، كانت من المهاجرات الأول ؛ وكانت ذات جمال وعقل وكمال ، وكانت عند أبي عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم ؛ فاستشارت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته .
(٣) القرطبي ـ جـ ١٦ ـ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠

كل دعوى جاهلية وذلك لترد البشر الى الأب الواحد والمنهج الواحد الذى به يسعدون لكى لا يعلو أحد على أحد ، ولا يتفاخر انسان على انسان ولا قبيلة على قبيلة ، ولا لون على لون ، ولا جنس على جنس . فيضع لهم الميزان الحق الذى به يتفاضلون ، وهو ميزان الله للعالمين الذى تزول به جميع الخلافات والفروق من حيث المبدأ والنهاية على حد سواء . قال الله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .

حدثنا خالد بن يزيد الكاهلى " حدثنا أبو بكر عن أبى حصين عن سعيد بن جبير " عن ابن عباس رضى الله عنهما (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) قال : الشعوب القبائل العظام . والقبائل : البطون) حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله قال حدثنى سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال " قيل : يارسول الله من أكرم الناس؟ قال : أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فيوسف نبى الله " وقال : (والناس معادن : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا ، تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه " .

وقال : حدثنا أبواليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى أبوسلمه بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضى الله عنه قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الفخر والخيلاء فى الفدّادين أهل الوبر ، والسكينة فى أهل الغنم والايمان يمان والحكمة يمانية " . قال أبو عبد الله : سميت اليمن لأنها عن يمين الكعبة ، والشام عن يسار الكعبة ، والمشأمة الميسرة ، واليد اليسرى : الشؤمى والجانب الأيسر الأشأم .) . . . . . .
. . . . . .

ويشير صاحب الفتح الى ما تضمنته الآية الكريمة من أن المناقب عند الله تعالى انما هى بالتقوى بأن يعمل بطاعته ويكف عن معصيته ، وقد ورد فى الحديث ما يوضح ذلك : ففى صحيحى ابن خزيمة وابن حبان وتفسير ابن مردويه من رواية عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال " خطب النبى صلى الله عليه وسلم - يوم الفتح فقال : أما بعد يا أيها الناس ، فان الله قد اذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها يا أيها الناس ، الناس رجلان : مؤمن تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله . ثم تلا (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى . . . .) . ورجاله

ثقـــات .....
.....

وروى احمد والحارث وابن أبى حاتم من طريق أبى نضرة " حدثنـــى من شهد خطبة النبى صلى الله عليه وسلم ـ بمنى وهو على بعير يقـــول : يا أيها الناس ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لأسود على أحمر الا بالتقوى ، خيركم عند الله أتقاكم " .....

ذكر ابن حزم فى مقدمة كتاب النسب له فصلا فى الرد على من زعم أن علم النسب علم لاينفع وجهل لا يضر بأن فى علم النسب ماهو فرض على كل أحد ، وماهو فرض على الكفاية ، وماهو مستحب . قال : فمن ذلك أن يعلم أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ابن عبد الله الهاشمى ، فمن زعم أنه لم يكن هاشميا فهـــو كافر ، وأن يعلم أن الخليفة من قريش . وأن يعرف من يلقاه بنسب فى رحـــم محرمة ليجتنب تزويج ما يحرم عليه منهم ، وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة ، وأن يعرف أمهات المؤمنين وان نكاحهـــن حرام على المؤمنين ، وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب ، وأن يعرف الائمة ليحسن اليهم لثبوت الوصية بذلك ولأن حبهم ايمان وبغضهم نفاق .....
.....

وورد فى المرفوع حديث " تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكـــم " . وله طرق أقواها ما أخرجه الطبرانى من حديث العلاء بن خارجة ، وجاء هـــذا أيضا عن عمر ساقه ابن حزم باسناد رجاله موثوقون الا أن فيه انقطاعا ، ....
.....

وانما أطلق على يوسف أكرم الناس (فى الحديث المتقدم) لكونه رابع نبـــى فى نسق ولم يقع ذلك لغيره ، فانه اجتمع له الشرف فى نسبه من وجهين ..) "١" .

(وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح " ان الله قـــد أذهب عنكم عبيـــة الجاهلية وفخرها بالآباء : مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتـــم بنو آدم "٢" . وآدم من تراب " .)

---

(١) فتح البارى ـ جـ ٦ ـ كتاب المناقب ـ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ـ الطبعـــة السلفية .
(٢) عبـــة الجاهلية : من فخرها بكبائرها وقلة فى النباية فى العبـــية

وفى الصحيحين عن عمرو بن العاص رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ان بنى فلان ليسوا لى بأولياء . انما ولى الله وصالحوا المؤمنين " .

فأخبر صلى الله عليه وسلم عن بطن قريب النسب : أنهم ليسوا بمجرد النسب أولياءه . انما وليه الله وصالحو المؤمنين من جميع الأصناف . ومثل ذلك كثير بين فى الكتاب والسنة : أن العبرة بالأسماء التى حمدها الله وذمها ، كالمؤمنين والكافرين ، والبر والفاجر ، والعالم والجاهل .

ثم جاء الكتاب والسنة بمدح بعض الاعاجم . قال الله تعالى :

هوالذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم) " ٦٢ ـ ٢ ، ٣ " سورة الجمعه .

وفى الصحيحين عن سالم أبى الغيث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال " كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال قائل من هم ، يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا وفينا سلمان الفارسى . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان الفارسى ثم قال : لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء " .

وفى صحيح مسلم عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس أو قال من أبناء فارس ، حتى يتناوله " .

وفى رواية " لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس " .

وقد روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله تعالى (٤٧ : ٣٨) (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم) أنهم من أبناء فارس الى غير ذلك من آثار رويت فى فضل رجال من أبناء فارس .

ومصداق ذلك : ما وجد فى التابعين ومن بعدهم من أبناء فارس الأحرار والموالى ، مثل : الحسن ، وابن سيرين وعكرمة مولى ابن عباس ،

وغيرهم الى من وجد بعد ذلك فيهم من المبرزين في الايمان والدين والعلم حتى صار هؤلاء المبرزون في ذلك أفضل من أكثر العرب .

وكذلك في سائر أصناف العجم : من الحبشة والروم والترك وغيرهم : سابقون في الايمان والدين لايحصون كثرة ، على ما هو معروف عند العلماء . اذ الفضل الحقيقي : هو اتباع مابعث الله به محمدا صلى الله عليه و سلم من الايمان والعلم ، باطنا وظاهرا . فكل من كان فيه أمكن : كان أفضل . والفضل انما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة . مثل : الاسلام والايمان والبر والتقوى والعلم والعمل الصالح ، والاحسان ونحو ذلك . لا بمجرد كون الانسان عربيا أو عجميا أو أسود أوأبيض ، ولا بكونه قرويا أو بدويا) . "١"

ولعلي رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فان يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل الا لأهل العلم أنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء
وضده كل امرئ ماكان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقد ذكر القرطبي في كتابه " الجامع لأحكام القرآن " :

خلق الله الخلق بين الذكر والانثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدرها ، وهو أعلم بها ، فصار كل أحد يحوز نسبه ، فاذا نفاه رجل عنه استوجب الحد بقذفه ، مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه ، ذلك مما يقع به النفي حقيقة . ا . هـ .....
.....

الشعوب رؤوس القبائل ، مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج ، وأحدها شعب بفتح الشين ، سموا به لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة . والشعب من الأضداد ، يقال شعبته اذا جمعته ، ومنه المشعب (بكسر الميم) وهو الأشفى ، لأنه يجمع به ويشعب . قال :

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ـ شيخ الاسلام ابن تيمية ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ مطبعة الحكومة مكة المكرمة .

فكاب على حد الجبين و مفرق بمدرية كأنه ذلق مشعب

وشعبته اذا فرقته ، ومنه سميت المنية شعوبا لأنها مفرقة . فأما الشعب (بالكسر) فهو الطريق فى الجبل ، والجمع الشعاب . قال الجوهرى : الشعب ماتشعب من قبائل العرب والعجم ، والجمع الشعوب ، والشعوبية : فرقة لا تفضل العرب على العجم . وأما الذى فى الحديث : أن رجلا من الشعوب أسلم ، فانه يعنى من العجم ؛ والشعب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذى ينسبون اليه ، أى يجمعهم ويضمهم .

قال ابن عباس : الشعوب الجمهور ، مثل مضر والقبائل الافخاذ وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب والقبائل دون ذلك . وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب . وقاله قتاده ذكر الأول عنه المهدوى ، والثانى الماوردى . قال الشاعر :

رأيت سعودا من شعوب كثيرة فلم أر سعدا مثل سعد بن مالك

وقال آخر :

قبائل من شعوب ليس فيهم كريم قد يعد ولا نجيب

وقيل : ان الشعوب عرب اليمن من قحطان ، والقبائل من ربيعة و مضر وسائر عدنان .

وقيل : ان الشعوب بطون العجم ، والقبائل بطون العرب . وقال ابن عباس فى رواية ان الشعوب الموالى ، والقبائل العرب .

قال القشيرى : وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والجبل [١] والترك والقبائل من العرب) . . . . . .
. . . . . .

وحكى ابو عبيد عن ابن الكلبى عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ . وقيل : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة .

---

(١) الجبل : الامة من الخلق والجماعة من الناس .

وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

أقصد الشعب فهو أكثر حـــى ... عددا فى الحواء ثم القبيلـــة
ثم تتلوها العمـارة ثـــم الـــ ... ـبطن والفخذ بعدها والفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لكـــن ... هى فى جنب ماذكرناه قليلـــه

وقال آخر :

قبيلة قبلها شعب وبعدهمـا ... عمارة ثم بطن تلوه فخـــذ
وليس يؤوى الفتى الا فصيلته ... ولا سداد لسهم ماله قـــذذ

وذكر الراغب الاصفهانى فى كتابه (المفردات فى غريب القرآن) [1] شعب : الشعب القبيلة المتشعبة من حى واحد وجمعه شعوب ، قال الله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل) [2] وقوله تعالى (لتعارفوا) علة للجعل أى جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا فتصلوا الأرحام وتبينوا الانساب — والتوارث لا لتفاخروا بالآباء والقبائل والحصر مأخوذ من التخصيص بالذكـــر والسكوت فى معرض البيان . وقرأ الأعمش لتتعارفوا بتاءين على الأصل ومجاهد وابن كثير فى رواية وابن محيصن بادغام التاء فى التاء وابن عباس وأبان عـن عاصم لتعرفوا بكسر الراء ، مضارع عرف ، وزاد على ذلك فى البحر المحيـــط والمعنى أنكم جعلكم الله تعالى ماذكر كى يعرف بعضكم بعضا فى النسب فلا ينتمى الى غير آبائه لا للتفاخر بالآباء والأجداد ودعوى التفاضل هـــى التقوى .

قال ابن جنى والمفعول محذوف أى لتعرفوا ما أنتم محتـاجـــون اليه . وقوله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) تعليل للنهى عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف الحقيقى ، كأنه قيل ان الأكرم عند الله تعالى والأرفع منزلة لديه عز وجل فى الآخرة والدنيا هو الأتقى ، فـان تفاخرتم ففاخروا بالتقوى ، وقرأ ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — قـــرأ لتعرفوا وأن أكرمكم بفتح الهمزة فاحتمل أن يكون أن أكرمكم .. الخ معمـولا لتعرفوا وتكون اللام فى لتعرفوا لام الأمر وهو أجود من حيث المعنـــى وأما ان كانت لام كى فلا يظهر المعنى اذ ليس جعلهم شعوبا وقبائل لأن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٦ — ص ٣٤٣ — ٣٤٥
(٢) المفردات فى غريب القرآن — الراغب الأصفهانى — ص ٢٦١

يعرفوا أن أكرمهم عند الله أتقاهم فان جعلت مفعولا لتعرفوا محذوفا أى لتعرفوا الحق لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ساغ فى اللام أن تكون لام كى ١٠ هـ "١"

ويقول الفخر الرازى عند قوله تعالى (لتعارفوا) اشارة الى قياس خفى ، وبيانه هو أنه تعالى قال : انكم جعلتم قبائل لتعارفوا وأنتم اذا كنتم أقرب الى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم ، فاذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الأحق بالافتخار هناك من الكل الافتخار بذلك ، كما أنه فى ذلك ارشاد الى برهان يدل على أن الافتخار ليس بالانساب ، وذلك لأن للتعارف بسبب الانتساب الى شخص فان كان ذلك الشخص شريفا صح الافتخار فى ظنكم وان لم يكن شريفا لم يصح ، فشرف ذلك الرجل الذى تفتخرون به هو بانتسابه الى فضيلة أو باكتساب فضيلة فان كان بالانتساب لزم الانتهاء ، وان كان بالاكتساب فالدين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر ، فكيف يفتخر بالأب وأب الأب على من حصل له من الحظ والخير ما فضل به نفسه عن ذلك الأب والجد اللهم الا أن يجوز شرف الانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان أحدا لا يقرب من الرسول فى الفضيلة حتى يقول أنا مثل أبيك ، ولكن فى هذا النسب أثبت النبى صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب اليه بالاكتساب ، ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب ، فقال عليه الصلاة والسلام " نحن معاشر الأنبياء لا نورث " . وقال " العلماء ورثة الأنبياء " أى لا نورث بالانتساب وانما نورث بالاكتساب .....

وهنا يورد الفخر قصة طريفة وذات مدلول جيد كما يذكرها الآلوسى يقول : سمعت أن بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان فى النسب أنيب الناس الى على — رضى الله تعالى عنه — غير أنه كان فاسقا ، وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ، ومال الناس الى التبرك به ، فاتفق أنه خرج يوما من بيته يقصد المسجد ، فاتبعه خلق فلقيه الشريف سكران ، وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه ، فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له : يا أسود الحوافر والشوافر ، يا كافر ابن كافر أنا ابن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أذل وتبجل ! وأذم وتكرم ! وأهان وتمان ! فهم الناس بضربه فقال الشيخ

---

(١) روح المعانى — الآلوسى — جـ ٨ — ص ١٩٤ .

لا هذا محتمل منه لجده ، وضربه محدود فى جده ، ولكن يا أيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبى فوق سواد وجهى فحسنت ، وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبى فرآنى الخلق فى سيرة أبيك ورأوك فى سيرة أبى فظنونى ابن ابيك وظنوك ابن أبى ، فعملوا معك ما يعمل مع أبى وعملوا معى ما يعمل مع أبيك ! .

وذكر الفخر (ما الحكمة فى اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ولم يذكر المال ؟ يقول : الأمور التى يفتخر بها فى الدنيا وان كانت كثيرة لكن النسب أعلاها ، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به ، والحسن والسن ، وغير ذلك غير ثابت دائم ، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة الى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الاولى .

واذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى (انا خلقناكم) فائدة ؟ نعم ، وذلك لأن كل شىء يترجح على غيره ، فاما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ، ويترتب عليه بعد وجوده ، واما أن يترجح عليه بأمر هو قبله ، والذى بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشىء ، والذى قبله فاما راجع الى الأصل الذى منه وجد ، أو الى الفاعل الذى هو له أوجد ، كما يقال فى اناءين هذا من النحاس وهذا من الفضة ، ويقال هذا عمل فلان ، وهذا عمل فلان ، فقال تعالى لا ترجيح فيما خلقتم منه لانكم كلكم من ذكر وأنثى ، ولا بالنظر الى جاعلكم لانكم كلكم خلقكم الله ، فان كان بينكم تفاوت يكون بأمور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى .....

.....

ولما كان الخطاب مع الناس والأكرم يقتضى اشتراك الكل فى الكرامة ولا كرامة للكافر ، فانه أضل من الأنعام ، وأذل من البهائم ، وذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) لأن كل من خلق فقد اعترف بربه ، كأنه تعالى قال من استمر عليه لو زاد زيد فى كرامته ، ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة . ومن هنا جعل للتقوى حدا ، من الاتقى ؟

أدنى مراتب التقوى أن يجتنب العبد المناهى ويأتى بالأوامر ولا يقر ولا يأمن الا عندهما ، فان اتفق أن ارتكب منهيا لا يأمن ولا يتكل له بل يتبعه بحسنه ويظهر عليه ندامة وتوبة ، ومتى ارتكب منهيا ولم تاب فى الحال واتكل على المهلة فى الأجل ومنعه عن التذاكر طول الأمل ، فليس بمتق ، أما الأتقى : فهو الذى يأتى بما أمر به ويترك ما نهى عنه وهو مع ذلك خائف ربه لا يشتغل بغير الله ، فينور الله قلبه ، فان التفت لحظة الى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه ، وللأولين النجاة لقوله تعالى (ثم ننجى الذين اتقوا) وللآخرين السوق الى الجنة لقوله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فبين من أعطاه السلطان بستانا وأسكنه فيه ، وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب منه بساتين وضياعا بون عظيم "١" ولله المثل الأعلى .....

وقد ذكر القرطبى فى معنى التقوى فقال :

التقوى : معناه مراعاة حدود الله تعالى أمرا ونهيا ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه ، وفى الخبر - فيما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى يوم القيامة انى جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم الا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم ، أين المتقون أين المتقون ، وفى رواية - ألا ان أولياءى المتقون .

وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان أولياءى المتقون يوم القيامة وان كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا " وأعرض فى كل عطفيه .

وقد يعتبر النسب فى الكفاءة فى النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، أو بالمرموقين فى الزهد والصلاح والتقى المؤمن أفضل من الفاجر النسيب ، فان كانا تقيين فحينئذ يقدم النسيب منهما "٢"

---

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازى - ج ٢٨ - ص ١٣٧ - ١٤٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى - ج ١٦ - ص ٣٤٥ - ٣٤٨

ومن كل ما تقدم (لا يتنافى كون العرب أشرف من العجم ، وتفاوت كل من العرب والعجم فى الشرف • فقد ذكروا أن الفرس أشرف من النبـــط ، وبنوا اسرائيل أفضل من القبط • وأخرج مسلم وغيره عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم (ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانه واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم) لأن ذلك ليس الا باعتبار الخصال الحميده ، فشرف العرب علـى العجم مثلا ليس الا باعتبار أن الله تعالى امتازهم على من سواهم بفضائل جمة وخصال حميدة ، كما صحت به الأحاديث • وقد جمع الكثير منها العلامـــة ابن حجر الهيثمى فى كتابه "مبلغ الأرب فى فضائل العرب " •

ولا نعنى بذلك أن كل عربى ممتاز على كل عجمى بالخصال الحميدة بل ان المجموع ممتاز على المجموع • ثم ان أشرف العرب نسبا أولاد فاطمـــة رضى الله تعالى عنها لأنهم ينسبون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلـــم كما صرح به جمع من الفقهاء •

وأخرج الطبرانى عن فاطمة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم " كل بنى آدم ينتمون الى عصبة الا ولد فاطمة فأنـــا وليهم وأنا عصبتهم " •

وقد أخرج احمد والحاكم فى المستدرك عن المسور بن مخرمة ولا كـلام فيه قال : قال صلى الله تعالى عليه وسلم " فاطمة بضعة منى يقبضنى مـــا يقبضها ويبسطنى ما يبسطها ، وان الأنساب كلها تنقطع يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى • وحديث بضعية فاطمة رضى الله تعالى عنها مخرج فى صحيح البخارى أيضا •

قال الشريف السمهودى : ومعلوم أن أولادها بضعة منها فيكونـــون بواسطتها بضعة منه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وهذا غاية الشـــرف لأولادها .....

.....

ويعلم مما ذكر ونحوه كما قال المناوى عظيم نفع الانتساب اليه صلـى الله عليه وآله وسلم ، ولا يعارضه مـا فى أخبار آخر من حثه عليه الصلاة والسلام

لأهل بيته على خشية الله تعالى واتقائه سبحانه ، وأنه عليه الصلاة والسلام لا يغنى عنهم من الله تعالى شيئا حرصا على ارشادهم وتحذيرا لهم من أن يتكلوا على النسب فتقصر خطاهم عن اللحوق بالسابقين من المتقين ، وليجتمع لهم الشرفان شرف التقوى وشرف النسب .....
.....

وقد نقل المناوى عن ابن حجر أنه قال نهيه صلى الله عليه وسلم عن التفاخر بالأنساب موضعه مفاخرة تقتضى تكبرا واحتقار مسلم .....

ومع شرف الانتساب اليه عليه الصلاة والسلام لا ينبغى لمن رزقه أن يجعله عاطلا عن التقوى ويدنسه بمتابعة الهوى . فالحسنة فى نفسها حسنة وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة وهى من أهل بيت النبوة أسوأ وقد يبلغ اتباع الهوى بذلك النسيب الشريف الى حيث يستحى أن ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما ينكر نسبه ، وعليه قيل لشريف سيء الأفعال :

قال النبى مقال صدق لم يزل ... يحلو لدى الأسماع والأفواه
ان فاتكم أصل امرىء ففعاله ... تنبيكم عن أصله المتناهى
وأراك تسفر عن فعال لم تزل ... بين الانام عديمة الأشباه
وتقول انى من سلالة احمد ... أفأنت تصدق أم رسول الله

ومع هذا كله فالتقوى التقوى فالاتكال على النسب وترك النفس وهواها من ضعف الرأى وقلة العقل . ويكفى فى هذا قوله تعالى لنوح عليه السلام فى ابنه كنعان " انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح " وقوله عليه الصلاة والسلام " سلمان منا أهل البيت " فالحزم اللائق بالنسيب أن يتق الله تعالى ويكتسب من الخصال الحميده مالو كانت فى غير نسيب لكفته ليكون قد زاد على الزبد شهدا ، وعلق على جيد الحسناء عقدا ، ولا يكتفى بمجرد الانتساب الى جدود سلفوا ليقال له نعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا . وقد ابتلى كثير من الناس بذلك فترى أحدهم يفتخر بعظم بال وهو عرى كالابرة من كل كمال .

وقول الشاعر :

لم يجدك الحسب العالى بغير تقى ... مولاك شيئا فحاذر واتق الله
وابغ الكرامة فى نيل الفخار به ... فأكرم الناس عند الله أتقاها "١"

(١) روح المعانى ـ الآلوسى ـ جـ ٨ ـ ص ١٩٥ ـ ١٩٧

وقول الله تعالى (ان الله عليم خبير) أى عليم بظواهركم يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم ، فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا فى التقوى كما زادكم .

ما توجيه الآيات :

ومن الآيات الكريمة التى فيها الخطاب القرآنى العام لبنى البشر جميعا ليكونوا على منهج الله وشريعة الله ، وذلك مافى الآيات من تربية للجماعات البشرية واشعارها بعظمة الله عز وجل والتذكير بلقائه ، لأن الايمان باليوم الآخر منطلق عظيم لبقية السبل الخيرة . وبذلك النداء الذى يخاطب به الأمة الواحدة كمجموع متكامل ، ويحثها على اصطناع المعروف والتزام الحق ويحث النوع الانسانى على التعاون فى سبيل الخير العام ، والنهوض بالحياة البشرية الى غايتها المقدرة ونسيان الفوارق الطبقية واللونية والعنصرية بين الافراد والأجناس ليتم التعاون والتعارف فى أوسع مدى ، ويؤتى ثماره لخير الفرد والجماعة على السواء .

وبهذا المبدأ المثالى وهذه الدعوة السامية الى الأخوة الانسانية لتتعارف وتتعاطف ، ولا تتناكر وتتعادى مع اشعارهم بأنهم من جنس واحد ، وهو جنس الانسان الذى يأنس بعضه ببعض ، وأنهم مربوبون لرب واحد ، يعاملهم بميزان واحد هو تقواه فى أوامره ونواهيه ، وأن التقوى وحدها هى ميزان أقدارهم عنده فأتقاهم له فى الدنيا هم أعلاهم قدرا يوم القيامة . فالأمر اذن لا يقوم على النظرة المادية المحضة التى يتفاوت على أساسها البشر وذلك من كثرة مال وعلو سلطان وحسن مظهر فان مبدأ التفاضل فى الاسلام يقوم على أساس التقوى ، والتقوى وحدها هى الأصل ، فهو الميزان العدل فى الدنيا والآخرة حيث يوضع ميزان البشر ويرفع ميزان الله رب العالمين فيضع أنساب الناس ويرفع نسبه ونسب الله هو الاسلام .

وعلى هذا المبدأ السليم والمنهج الربانى القويم تقوم الحياة المثالية والمجتمع المثالى فى كل مقوماته الاجتماعية والروحية وكل مايلزمه فى حياته . وعلى ذلك سعادة الدنيا والآخرة .

البـــــاب الســـــادس

أ ـ صفـــات المؤمنيـــن :

١ ـ معنى الايمان والاسلام .
٢ ـ صفـات المؤمنيـــن .

ب ـ الاخلاص وأثره في الأعمـال .

١ ـ فضيلـة الاخلاص .
٢ ـ حقيقـة الاخلاص .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة القواعد والمبادىء والأسس التى يقوم عليها المجتمع المسلم فكانت الخاتمة منها تقرير الأساس الذى يقوم عليه الكيان وقبول العمل ولا قيمة لشىء الا به ألا وهو حقيقة الايمان • وعليه كان تعريف الايمان والاسلام ، والفرق بينهما وذلك لما كان من الجواب للاعراب الذين أدعو الايمان •

وقد ذكر ابن حجر فى فتح البارى عند باب قول النبى صلى الله عليه وسلم " بنى الاسلام على خمس " وذلك من كتاب الايمان فقال فى تعريف الايمان (هو قول وفعل • ويزيد وينقص• قال الله تعالى (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ـ وزدناهم هدى ـ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ـ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ـ ويزداد الذين آمنوا ايمانا) وقوله تعالى (أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) وقوله جل ذكره (فاخشوهم فزادهم ايمانا) وقوله تعالى (وما زادهم الا ايمانا وتسليما) .....
.....ـ

والايمان لغة التصديق ،وشرعا تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه • وهذا القدر متفق عليه ،ثم وقع الاختلاف : هل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة ابداء هذا التصديق باللسان المعبر عما فى القلب ، اذ التصديق من أفعال القلوب؟ أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات وترك المنهيات .....

والايمان فيما قيل مشتق من الأمن ، وفيه نظر لتباين مدلولى الأمن والتصديق وأما قوله (الايمان : قول وفعل ويزيد وينقص) وفى رواية الكشميهينى " قول وعمل " وهو اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك .....

والكلام هنا فى مقامين : أحدهما كونه قولا وعملا ، والثانى : كونه يزيد وينقص ، فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين ، ..... وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ، ليدخل الاعتقاد والعبادات ، ومراد من أدخل ذلك فى تعريف الايمان ومن نفاه انما هو بالنظر الى ماعند الله تعالى ، فالسلف قالوا هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان ، وعمل بالأركان • وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط فى كماله ، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص.....

.... والمرجئة قالوا : هو اعتقاد ونطق فقط • والكرامية قالوا :هو نطق فقط والمعتزلة قالوا : هو العمل والنطق والاعتقاد • والفارق بينهم وبين السلف

أنهم جعلوا الأعمال شرطا فى صحته • والسلف جعلوها شرطا فى كماله •

وهذا كله كما تقدم ـ بالنظر الى ماعند الله تعالى • أما بالنظر الى ما عندنا ، فالايمان هو الاقرار فقط • فمن أقر أجريت عليه الأحكام فى الدنيا ولم يحكم عليه بكفر الا أن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم ـ وما الى ذلك من الاعمال المكفرة ـ فان كان الفعل لايدل على الكفر كالفسق فمن اطلق عليه الايمان فبالنظر الى اقراره ، ومن نفى عنه الايمان فبالنظر الى كماله ، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر الى أنه فعل فعل الكافر ، ومن نفاه عنه فبالنظر الى حقيقته •

وأما المقام الثانى فذهب السلف الى أن الايمان يزيد وينقص "١" وأنكر ذلك أكثر المتكلمين ، وقالوا متى قبل ذلك كان شكا • قال الشيخ محى الدين : والاظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة ، ولهذا كان ايمان الصدّيق أقوى من ايمان غيره بحيث لايعتريه الشبهة ، ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى انه يكون فى بعض الأحيان ، الايمان أعظم يقينا واخلاصا وتوكلا منه فى بعضها ، وكذلك فى التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها •

وقد نقل محمد بن نصر المروزى فى كتابه " تعظيم قدر الصلاة " عن جماعة من الائمة نحو ذلك ، وما نقل عن السلف صرح به عبد الرزاق فى مصنفه عن سفيان الثورى ومالك بن أنس والأوزاعى وابن جريج ومعمر وغيرهم ، وهؤلاء فقهاء الأمصار فى عصرهم • وكذا نقله أبو القاسم اللالكائى فى كتاب السنة " عن الشافعى وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبى عبيد وغيرهم من الأئمة ، وروى مسنده الصحيح عن البخارى قال : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف فى أن الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص

وأطنب ابن أبى حاتم واللالكائى فى نقل ذلك بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين وكل من يدور عليه الاجماع من الصحابة والتابعين وحكاه فضيل ابن عياض ووكيع عن أهل السنة والجماعة ، وقال الحاكم فى مناقب الشافعى : حدثنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع قال : سمعت الشافعى

---

(١) فتح البارى ـ ج ١ ـ كتاب الايمان ـ ص ٤٥ ـ ٤٦

يقول : الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص ،وأخرجه أبو نعيم فى ترجمة الشافعى من الحلية من وجه آخر عن الربيع وزاد : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ثم تلا ـ قول الله تعالى ـ (ويزداد الذين آمنوا ايمانا) .

وفى ذكر معنى الاسلام أفرد البخارى بابا قال اذا لم يكن الاسلام على الحقيقة ، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل ، لقوله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فاذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره (ان الدين عند الله الاسلام) .

قال حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنا عامر بن سعد بن أبى وقاص عن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطا ـ وسعد جالس ـ فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا هو أعجبهم الى ّ فقلت : يا رسول الله مالك عن فلان ؟ فوالله أنى لأراه مؤمنا . فقال : أو مسلما فسكت قليلا . ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقالتى فقلت : مالك عن فلان ؟ فوالله انى لأراه مؤمنا فقال : أو مسلما . ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقالتى ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : يا سعد ،انى لأعطى الرجل وغيره أحب الى ّ منه ، خشية أن يكبه الله فى النار . ورواه يونس وصالح ومعمر وابن أخى الزهرى عن الزهرى .

ويعقب ابن حجر فى الشرح على ذلك فيقول فى فتح البارى اذا كان الاسلام كذلك لم ينتفع به فى الآخرة . ومحصل ما ذكره واستدل به أن الاسلام يطلق ويراد به الحقيقة الشرعية وهو الذى يرادف الايمان وينفع عند الله . وعليه قوله تعالى (ان الدين عند الله الاسلام) وقوله تعالى (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) . ويطلق ويراد به الحقيقة اللغوية وهو مجرد الانقياد والاستسلام ، فالحقيقة فى كلام المصنف هنا هى الشرعية ومناسبة الحديث للترجمة ظاهرة من حيث أن المسلم يطلق على من أظهر الاسلام وان لم يعلم باطنه ، فلا يكون مؤمنا لأنه ممن لم تصدق عليه الحقيقة الشرعية ، وأما اللغوية فحاصلة .....

وأما قصة سعد فى سؤاله النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك الرجل ليس معناه الانكار بل المعنى أن اطلاق المسلم على من لم يختبر حاله الخبرة الباطنة أولى من اطلاق الايمان ، لأن الاسلام معلوم بحكم الظاهر ،

قاله الشيخ محي الدين ملخصا ،ومحصل القصة أنه صلى الله عليه وسلم كان يوسع العطاء لمن أظهر الاسلام تألفا ، فلما أعطى الرهط وهم من المؤلفة وترك جعيلا وهو من المهاجرين مع أن الجميع سألوه ، خاطبه سعد في أمره لأنه كان يرى أن جعيلا أحق منهم لما اختبره منه دونهم ، ولهذا راجع فيه أكثر من مرة. فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم في أمرين :

أحدهما : اعلامه بالحكمة في اعطاء أولئك وحرمان جعيل مع كونه أحب اليه ممن أعطى ،لأنه لو ترك اعطاء المؤلف لم يؤمن ارتداده فيكون من أهل النار. ثانيهما : ارشاده الى التوقف عن الثناء بالأمر الباطن دون الثناء بالأمر الظاهر ،.....

.....

وفي رواية عبد الرزاق عن معمر من الزيادة : قال الزهري فنرى أن الاسلام الكلمة ، والايمان العمل . وقد استشكل هذا بالنظر الى حديث سؤال جبريل ، فان ظاهره يخالفه . ويمكن أن يكون مراد الزهري أن المرء يحكم باسلامه ويسمى مسلما اذا تلفظ بالكلمة ـ أي كلمة الشهادة ـ وأنه لا يسمى مؤمنا الا بالعمل ، والعمل يشمل عمل القلب والجوارح ، وعمل الجوارح يدل على صدقه. وأما الاسلام المذكور في حديث جبريل فهو الشرعي الكامل المراد بقوله تعالى : " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه " . "١"

ومن القصة التي مرت وهي مراجعة سعد للنبي صلى الله عليه وسلم في أمر جعيل أكثر من مرة : نأخذ عبرة وعظة لازمة لكل مربي ولكل داعية ، وذلك من تمام الأسوة في الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم حيث يستفاد من ذلك :

١ ـ مراعاة حال الاتباع والاعتناء بالأضعف منهم أكثر من غيره الذي يلاحظ فيه القوة والثبات في دينه . وذلك في كل شيء من عطاء وغيره من الحرص المطلوب أن يكون من كل داعية الى الله وذلك بأن يحرص كل الحرص على ايمان الناس والحفاظ على أمر دينهم ، فهو رؤوف بهم رحيم يحرص لانقاذهم من النار وذلك بادخالهم في دين الله ، وتعريفهم بالطريق الصحيح والمنهج القويم من شريعة الله ، لكي لا ينحرفوا عن الصواب والحق . ولذلك نرى الداعية المخلص يتألم لا على ذهاب دنيا منه ،

---

(١) المصدر نفسه ـ ج ـ ص. ٨٠ ـ ٨٢

وانما على ذهاب شخص من حظيرة الاسلام بالانحراف أو باتباع مبادىء الضلال والزيغ والانحلال .

ثانيهما : أن على المسلم أن يكون دقيقا فى تعبيره من مديح وثناء ، ولا يجازف فى ألفاظه ولا يغلوا فى مديحه لأن الأمر أشبه بالشهادة ومن مقتضيات الشهادة أن تكون قائمة على أمر متيقن ومشاهد ، وبما أن المديح والثناء قد يكون على أمر باطن غير ظاهر فمن الاولى والأسلم ألا يمدح ولا يثنى على انسان الا عن معرفة وعلم ويقين . وهذا أمر عظيم ومنهج قويم يدعم أركان الجماعة المؤمنة بحيث ينزل الناس منازلهم ، ويعطى كل انسان حقه ومكانه . وعلى هذا الأساس لا يكون للدخيل على الأمة والجماعة المسلمة مكان ، ولا يصل الى مراتب القيادة فيها الا من محص ودقق معروف الحال ظاهرا وباطنا وعلى ذلك العدالة التى توهله لأن يأخذ مكانه فى الجماعة المؤمنة وعلى هذا الأساس كان منهج الاختيار فى امارة أو غيرها من المسئوليات العامة ، أمانة عظيمة ومسئولية كبرى أمام الله العدل وعليه كانت ديمقراطية الشعوب التى يقولون عنها بأنها حكم الشعب للشعب كانت فاشلة وباطلة ومنافية للاسلام لأنها لا تقوم على الكفاءات الصحيحة ولا على الاختيار الدقيق . فمن هنا كان للاختيار فى المجتمع المسلم مبدأ وأساس وأهل له هم أهل الحل والعقد والرأى السديد والعلم والتقوى والورع . كل ذلك مخافة أن يلعب الهوى دوره فى مصير الأمة ومصلحة الجماعة المسلمة .

وفى الباب الذى ذكره البخارى وهو سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الايمان والاسلام ، والاحسان ، وعلم الساعة . وبيان النبى صلى الله عليه وسلم له . ثم قال : جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم ، فجعل ذلك كله دينا . وما بين النبى صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس من الايمان . وقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) .

وقال حدثنا مسعد قال حدثنا اسماعيل بن ابراهيم أخبرنا أبوحيان التيمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن

بالله وملائكته ،وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث • قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضه ، وتصوم رمضان • قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك • قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل • وسأخبرك عن أشراطها : اذا ولدت الأمة ربها ، واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان • فى خمس لا يعلمهن الا الله • ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم " ان الله عنده علم الساعة " الآية • ثم أدبر • فقال ردوه • فلم يروا شيئا • فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم • قال ابو عبد الله جعل ذلك كله من الايمان •

" المصنف يرى أن الايمان والاسلام عبارة عن معنى واحد ، فلما كان ظاهر سؤال جبريل عن الايمان والاسلام وجوابه يقتضى تغايرهما ، وأن الايمان تصديق بأمور مخصوصة والاسلام اظهار أعمال مخصوصة ، أراد أن يرد ذلك بالتأويل الى طريقته • قوله (وبيان) أى مع بيان أن الاعتقاد والعمل دين ، وقوله " ومابين " أى مع ما بين للوفد أن الايمان هوالاسلام حيث فسره فى قصتهم بما فسر به الاسلام هنا ، وقوله " وقول الله " أى مع ما دلت عليه الآية أن الاسلام هوالدين ، ودل عليه خبر أبى سفيان أن الايمان هو الدين ، فاقتضى ذلك أن الاسلام والايمان أمر واحد • هذا محصل كلامه وقد نقل أبو عوانة الأسفرايني فى صحيحه عن المزنى صاحب الشافعى الجزم بأنهما عبارة عن معنى واحد ، وأنه سمع ذلك منه • وعن الامام أحمد الجزم بتغايرهما ، ولكل من القولين أدلة متعارضة • وقال الخطابى : صنف فى المسألة اماما ن كبيران وأكثرا من الأدلة للقولين ، وتباينا فى ذلك • والحق أن بينهما عموما وخصوصا ، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنا • انتهى كلامه ملخصا •

ومقتضاه أن الاسلام لا يطلق على الاعتقاد والعمل معا بخلاف الايمان فانه يطلق عليهما معا • ويرد عليه قوله تعالى " ورضيت لكم الاسلام دينا " فان الاسلام هنا يتناول العمل والاعتقاد معا ، لأن العامل غير المعتقد ليس بذى دين مرضى ، وبهذا استدل المزنى وأبو محمد البغوى فقال فى الكلام على حديث جبريل هذا : جعل النبى صلى الله عليه وسلم الاسلام هنا اسما لما ظهر من الأعمال ، والايمان اسما لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذاك لأن الأعمال ليست من الايمان ، ولا لأن التصديق ليس من الاسلام ، بل

ذلك تفصيل لجملة كلها شيء واحد وجماعها الدين ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم " أتاكم يعلمكم دينكم " وقال سبحانه وتعالى " ورضيت لكم الاسلام دينا " وقال تعالى " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه " .

ولا يكون الدين في محل الرضا والقبول الا بانضمام التصديق . انتهى كلامه .

والذي يظهر من مجموع الأدلة أن لكل منهما حقيقة شرعية ، كما أن لكل منهما حقيقة لغوية . لكن كل منهما مستلزم للآخر بمعنى التكميل له ، فكما أن العامل لا يكون مسلما كاملا الا اذا اعتقد ، فكذلك المعتقد لا يكون مؤمنا كاملا الا اذا عمل ، وحيث يطلق الايمان في موضع الاسلام أو العكس ، أو يطلق أحدهما على ارادتهما معا فهو على سبيل المجاز ويتبين المراد بالسياق ، فان وردا معا في مقام السؤال حملا على الحقيقة ، وان لم يردا معا أو لم يكن في مقام سؤال أمكن الحمل على الحقيقة أو المجاز بحسب ما يظهر من القرائن .

وقد حكى ذلك الاسماعيلي عن أهل السنة والجماعة قالوا : انهما تختلف دلالتهما بالاقتران . فان أفرد أحدهما دخل الآخر فيه . وعلى ذلك يحمل ما حكاه محمد بن نصر وتبعه ابن عبد البر عن الأكثر أنهم سووا بينهما على ما في حديث عبد القيس ، وما حكاه اللالكائي وابن السمعاني عن أهل السنة أنهم فرقوا بينهما على ما في حديث جبريل والله الموفق . "١"

ومما جاء في جامع الترمذي : قال حدثنا قتيبة ، أخبرنا عباد بن عباد المهلبي عن أبي جمرة عن ابن عباس قال : " قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا انا هذا الحي من ربيعة ولسنا نصل اليك الا في الشهر الحرام ، فمرنا بشيء نأخذه عنك وندعو اليه من وراءنا ، فقال آمركم بأربع : الايمان بالله ، ثم فسرها لهم : شهادة أن لا اله الا الله ، وأني رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمسا ما غنمتم . وقد ورد الحديث في رواية البخاري .

قال حدثنا علي بن الجعد قال أخبرنا شعبة عن أبي جمرة قال : كنت أقعد مع ابن عباس يجلسني على سريره ، فقال : أقم عندي حتى أجعل لك سهما من مالي . فأقمت معه شهرين ، ثم قال : ان وفد عبد القيس لما أتوا

---

(١) المصدر نفسه ـ جـ ـ ص ١١٤ ـ ١١٥

النبي صلى الله عليه وسلم قال : من القوم ـ أو من الوفد ؟ ـ قالوا : ربيعة. قال مرحبا بالقوم ـ أو بالوفد ـ غير خزايا ولا ندامى . فقالوا : يارسول الله انا لا نستطيع أن نأتيك الا في الشهر الحرام ، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا ، وندخل به الجنة . وسألوه عن الأشربة . فأمرهم بأربع ، ونهاهم عن أربع : أمرهم بالايمان بالله وحده. قال أتدرون ما الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة و وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس. ونهاهم عن أربع : عن الحنتم ، والدباء ، والنقير ، والمزفت . وربما قال : المقير ـ وقال : احفظوهن ، واخبروا بهن من وراءكم .

وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري عن الحنتم وغيره فقال (والحنتم بفتح المهملة وسكون النون وفتح المثناه من فوق هي الجرة ، كذا فسرها ابن عمر في صحيح مسلم ، وله عن أبي هريرة : الحنتم الجرار الخضر ، وروى الحربي في الغريب عن عطاء أنها جرار كانت تحمل من طين وشعر ودم . والمراد (أي ما في الحنتم ونحوه) .

والدباء : بضم المهملة وتشديد الموحدة والمد هو القرع ، قال النووي والمراد اليابس منه . وحكى الغزاز فيه القصر . والنقير بفتح النون وكسر القاف: أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء . و

والمزفت بالزاي والفاء ماطلي بالزفت . والمقير بالقاف والياء الأخيرة ماطلي بالقار ويقال له القير ، وهو نبت يحرق اذا يبس تطلى به السفن وغيرها كما تطلى بالزفت ، قاله صاحب المحكم وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال : أما الدباء فان أهل الطائف كانوا يأخذون القرع فيخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت . وأما النقير فان أهل اليمامة كانوا ينقرون أصل النخلة ثم ينبذون الرطب واليسر ثم يدعونه حتى يهدر ثم يموت . وأما الحنتم فجرار كانت تحمل الينا فيها الخمر . وأما المزفت فهذه الأوعية التي فيها الزفت ا . هـ . واسناده حسن . وتفسير الصحابي أولى أن يعتمد عليه من غيره لأنه أعلم بالمراد . ومعنى النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية بخصوصها

لأنه يسرع فيها الاسكار ، فربما شرب منها من لا يشعر بذلك ، ثم ثبتت الرخصة في الانتباذ في كل وعاء مع النهي عن شرب كل مسكر ١ . هـ . "١"

وخلاصة القول اذا أردنا أن نفرق بين معنى الاسلام والايمان والاحسان ونأخذ لكل تعريفا خاصا فيسعنا في ذلك ما ذكره صاحب كتاب الدين الخالص :

(الاسلام : هو انقياد الجوارح والأركان والأعضاء للشرع الشريف .

والايمان : هو تصديق القلب والجنان والفؤاد والخلد ، بما ذكر من الأعمال والمعاد وغيرها .

والاحسان : هو اخلاص الباطن الصادق في أعمال الجوارح وأفعال القلوب) "٢"

ولما كان الأعراب لم يفهموا حقيقة الايمان ، وكان ايمانهم ادعاء رد الله عليهم قولهم . وبين لهم حقيقة الايمان وصفة المؤمنين المخلصين الصادقين . وأن ما ادعوه هو اطلاق الاسلام الذي هو الاستسلام والانقياد الظاهري مخافة القتل ، لأن ما قالوه لم يوافق ما في قلوبهم ، فلذلك قال الله تعالى " ولما يدخل الايمان في قلوبكم " ومع ذلك فان الله الكريم الحليم الغفور الرؤوف لن يضيع لهم أعمالهم الخيرة ان هم أحسنوا بطاعة الله ورسوله ، واتبعوا الأوامر وابتعدوا عن النواهي وان الله غفار لمن تاب وأصلح . قال الله تعالى " وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم . "

ثم بعد ذلك ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين الصادقين المخلصين قال الله تعالى " انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون " .

وأول صفة ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الايمان بالله لأنه لا ينفع ولا يصح عمل بدون الركن الأساسي من أركان العقيدة . وان هذا الركن الأول من العقيدة قد ضل عنه أقوام مع قربهم الى هداية الرسل . فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد قد غلب عليهم التشبيه ، وغاب عنهم

---

(١) المصدر نفسه ـ جـ ١ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥

(٢) الدين الخالص ـ جـ ٣ ـ ص ١٠٦ محمد صديق حسن ـ مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر القاهرة .

أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة في صفات الله وبين عقيدة التنزيه • فقد جعلوا الله كالانسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه الانسان لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة "١" • وزعموا أنه كان يظهر في شكل الانسان حتى أنه صارع اسرائيل ، ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه "٢" وعبدوا بعلا وغيره من الأصنام • لقد خابوا وخسروا فيما افتروه على الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا •

وكذلك النصارى ضلوا في ذلك واتخذوا المسيح عيسى ابن مريم ربا وإلها ، وعبدوا القديسين والرهبان واتخذوهم أربابا من دون الله • قال الله تعالى " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " •
وذلك نتيجة للغلو الزائد عن الحد والاطراء الممقوت والتعظيم الكبير حتى جعلوا لهم الصور والتماثيل والهياكل والنصب ، وغدت على مر الأيام كنائس النصارى كمعابد الوثنية وأصبح دينهم كله يقوم على التثليث والصلب والفداء • وفي هذا محض الخرافة التي يربون عليها أبناءهم وصبيانهم تربية شعورية ، فتتعمق مع وجدانهم مع أنها لا تقوم على برهان ، وتنافى كل عقل سليم • لذلك كان الايمان بالله الركن الأساسي في العقيدة ثم الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله أمر هذا الدين لأن البشر يعيش في جهالة جهلاء لولا هداية الله تعالى وارشاده للبشرية عن طريق رسله • وعلى هذا الأساس يكون العبد متوجها في كل أمر من أموره وفي كل شأن من شئونه بالدعاء الى الله وحده عالما بأن الله هو الرزاق وهو المنعم وهو المتفضل في كل النعم ظاهرها وباطنها حتى نعمة الايمان التي هي أعلى النعم وأعظمها هي فضل ومنة من الله على عباده الذين هداهم للايمان • فاذا خلص ايمان المرء من كل الشوائب والريب وخلى توجهه من كل شيء سوى الله ، وكان توجهه لله وحده • بذلك يخلص له الركن الأساسي الذي

---

(١) الوحي المحمدي — رشيد رضا — ص ١٣٠ — ط • ثانية — مطبعة المنار بمصر • منقول عنه وهو يشير الى سفر التكوين مع النقل :
(٣ : ٢٢ وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر) وفيه (٦ : ٦ فحزن الرب " وفي ترجمة أخرى فندم " أنه عمل الانسان وتأسف في قلبه •
(٢) راجع آخر الفصل — ٣٢ — من سفر التكوين • نقلا عن المصدر السابق •

تبنى عليه بقية الأركان . ومن ثم كانت العبادة وكان التعلق والتوله فى حبه سبحانه وتعالى وما يصاحب ذلك من تسبيح وتقديس وتنزيه حتى يرى العبد أن كل مافى هذا الوجود هو مذهن خاضع متعبد مسبح لله الواحد القهار. قال الله تعالى " سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهوعلى كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم "(١) . وقال تعالى " هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمين العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) . (سورة الحشر ٢٢ ـ ٢٤) .

يقول السيد رشيد رضا بعد هذه الآيات :

" فهذه الأسماء الالهية هى ينابيع الحياة الروحية فى القلوب ، ومشارق أنوار المعارف الالهية على العقول ، ومنها استمد الأولياء العارفون ، والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية ، والكتب العالية فى معرفته تعالى وأسرار خلقه ..... ثم يقول : وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ليكون الله تعالى غالبا على أمرهم "(٢) ..... ثم يقول : ان عقيدة التوحيد القرآنى هى أعلى المعارف التى ترقى الانسان الى أعلى ما خلق مستعدا له من الكمال الروحى والعقلى والعدنى . وقد صرح كثير من علماء الافرنج أن سهولة فهم هذه العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة هما السبب الأكبر لقبول الأمم له ـ أى الاسلام ـ وانهزام النصرانية من أمامه .

قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذى زكى أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكملهم بعزة النفس ، وشدة البأس واقامة الحق والعدل . ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم ، واعتاقها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحى والعقلى ، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، واقامة دعائم الحضارة واحياء العلوم والفنون

---

(١) سورة الحديد (١ و ـ ٣)

(٢) المصدر نفسه ـ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ

الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك مالم يقع مثله أو ما يقاربه لأمة من أمم الأرض .

حتى قال الدكتور فوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير في كتابه " تطور الأمم " : " ان ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة الا في ثلاثة أجيال : أولها : جيل التقليد وثانيها : جيل الخضرمة وثالثها : جيل الاستقلال والاختصاص . قال : الا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدءوا فيه بمزاولتها " ١ . هـ "١"

هذا كلام قد فهمه غيرنا عنا وبعض من شذ منا عن مفاهيج أمتنا وكفروا بها لم يفهموا ذلك بل حاربوا كل تقليد سامي وكل خلق كريم حتى تراءى لهم كل خير بصورة الشر ، وتراءى لهم كل شر بصورة الحسن ، فاستوردوا وتمذهبوا وألحدوا ظنا منهم بأنهم طلاب حق ودعاة مساواة وحرية وكرامة وانسانية . فلله أمرهم ، فلا هم أحسنوا بما أتوا ، ولا هم أصلحوا بما انتهجوا وانما كان ما كان منهم من تدمير للقيم وقتل للشعور وخنق للحرية وذبح للكرامة وهدر وانتهاك للحرمات . ذلك مبلغهم من العلم ـ قاتلهم الله أنى يؤفكون ـ لا هم أصلحوا الوطنية بدعوى الوطنية ، ولا أقاموا دعائم القومية كما تنادوا ، ولا بنوا مجد أمة كما أعلنوا ، ولا حققوا كرامة انسان كما اذاعوا ، بل أوجدوا شعبا تحقق بكل انحلال وابتعاد عن القيم حتى أذلوا وسلبوا حريته واستهانوا كرامته بحرماته ، وجعلوه بحيث لا يرفع ضد الظلم رأسا ، ولا يلفظ بوجه المستهين كلمة حتى هيئوا أجيالا من الأمة تجردت من كل القيم والمثل فأصبح شعبا هينا كما أراد أعداؤنا .

الى متى يا أمة الاسلام الى متى يبقى أكارمكم أراذلكم وأراذلكم أكارمكم فهل من عودة الى سبب وجودكم وكيانكم وكرامتكم ومجدكم وعلمكم وسمعتكم وتقدمكم وسيادتكم على الأمم . فهل نعود الى كتاب ربنا وسنة نبينا وتربية قرآننا .

يقول السيد رشيد رضا عليه الرحمة :

" ان سبب ذلك ـ أي التقدم ـ تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد الأصم الأعمى ، وتوطين أنفسهم على امامة البشر وقيادته في أمور الدين والدنيا معا ، وقد خفي كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة

(١) المصدر نفسه ـ ص ١٣٥

الاسلامية ، وزوال النهضة العربية . وتحول السلطان الى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام الا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن . "١"

أقول : تحول الأمر والسلطان الى من كفر بالله باطنا ولبس لباس الاسلام ظاهرا يخدم أعداء الاسلام باسم الاسلام ، ويحارب الاسلام بما اعتقده . وكل ذلك سببه الانحراف العقيدي من الكفر بالله وبأركان الايمان جملة وتفصيلا . ولذلك كان أساس البناء للعقيدة الاسلامية والركن الأول والأصل الأصيل هو الايمان بالله ثم الايمان برسله ... وأركان الايمان . وقد ساقت الآية الكريمة الصفة الثانية من صفات المؤمنين المخلصين الصادقين وهى الصفة التى تركز وتقوى دعائم الايمان السابق وهو اليقين الكامل بما آمن به واعتقده وبذلك أن لا يخالط ذلك الاعتقاد أى شك أو ارتياب بحيث يستمروا على التصديق المتين والاذعان الكامل لله ولرسوله الحق محمد صلى الله عليه وسلم .

كل ذلك يكون من المؤمن مهما هبت عليه رياح الفتن وأهوال الابتلاء فيبقى صامدا ثابت الايمان مطمئن الجنان لما آمن به وصدقه .

وفى هذا يقول سيد قطب ـ عليه الرحمة ـ " انه ليس مجرد عبارة انما هو لمس لتجربة شعورية واقعية . وعلاج لحالة تقوم فى النفس ، حتى بعد ايمانها ..... " ثم لم يرتابوا " وشبيه بها الاحتراس فى قوله تعالى ... " ان الذين قالوا ربنا الله .... ثم استقاموا .... " فعدم الارتياب . والاستقامة على قولة : ربنا الله . تشير الى ما قد يعترى النفس المؤمنة تحت تأثير التجارب القاسية ، والابتلاءات الشديدة ـ من ارتياب ومن اضطراب . وان النفس المؤمنة لتصطدم فى الحياة بشدائد تزلزل ، وضوازل تزعزع . والتى تثبت فلا تضطرب وتثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة موصولة هى التى تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة الى مزالق الطريق وأخطار الرحلة ، لتحزم أمرها ، وتحتسب ، وتستقيم ، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها العواصف والرياح " "٢"

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٣٥ .

(٢) فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ جـ ٢٦ ـ ص ١٤٦ ـ ط ٥

فالايمان هو تصديق القلب بالله ورسوله دون شك أو ارتياب تصديقا لا يعتريه شك بل اطمئنان كامل وثبات واستقرار لأن القلب الذى يتذوق حلاوة الايمان لابد وأن ينطلق ليحقق فى واقع الحياة وفى واقع الدنيا والناس الأمور العملية للايمان • ومن هنا تأتى الصفة البينة الواضحة فى صفات المؤمنين العملية بقول الله تعالى ــ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون • الجهاد : الذى هو ثمرة من ثمار الايمان ونبتة من بذور العقيدة الصادقة لتعطى من نفسها كل شىء فى سبيل واهب العقيدة والايمان والنعم كلها • فانطلقوا بتصديقهم بالله ركضا وجمعهم الايمان صفوفا وكتائب وجيوش حتى استقبلت كل أرض منهم جمعا ، ولقى منهم كل ظالم درسا ويأسا ، تراهم فوارس عمالقة اذا حاربوا ، خاشعون اذا سجدوا حتى تمرست نفوسهم على القتال ودربت خيولهم على الجهاد ، وعرفت كيف ترتاح وكيف تصول وتجول حتى قال الشاعر

خيل النبى من الفولاذ معدنها
وسائر الخيل من لحم ومن عصب
ولا أزيدك بالاسلام معرفة
كل المروءة فى الاسلام والحسب

بهذا كانت الصفوة الأولى النبراس الأول فى جميع صنوف الجهاد المالى والنفسى ، فى كل شىء تملك لأنها وهبت نفسها لله •

وقبل أن نذكر الأحاديث التى وردت فى الجهاد وفضله نتعرض لمعنى الجهاد ، قال ابن حجر فى فتح البارى : (والجهاد بكسر الجيم أصله لغة المشقة ، يقال : جهدت جهادا بلغت المشقة ، وشرعا بذل الجهد فى قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق • فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين ثم على العمل بها ثم على تعليمها ، وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتى به من الشبهات وما يزينه من الشهوات ، وأما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب ، وأما مجاهدة الفساق فباليد ثم اللسان ثم القلب ، وقد روى النسائى من حديث سبرة ــ بفتح المهملة وسكون الموحدة ــ ابن الفاكه ــ بالفاء وكسر الكاف بعدها هاء ــ فى أثناء حديث طويل قال " فيقول ــ أى الشيطان ــ يخاطب الانسان : تجاهد فهو جهد النفس والمال " "١"

(فا) فتح البارى ــ جـ ٦ ــ ص ٣ •

لقد شمل هذا التعريف كل الجوانب المتعلقة فى الجهاد حتى أنه ذكر فيه أنواع الجهاد وهى :

١ ــ الجهاد باليد ــ أو النفس ــ

٢ ــ الجهاد المالى

٣ ــ الجهاد اللسانى ومنه يكون اما بالموعظة والارشاد والخطابة وكلمة الحق عند سلطان جائر وفى كل الميادين أو يكون ذلك بالقلم من كتابة ومقالة أو تأليف كتاب يدحض فيه أفكار ومبادئ المنحرفين .

٤ ــ الجهاد بالقلب .

قال الله تعالى " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ــ الى قوله تعالى ..... وبشر المؤمنين " ١١١ التوبة .

قال البخارى ــ حدثنا الحسن بن صباح حدثنا محمد بن سابق حدثنا مالك بن مغول قال : سمعت الوليد بن الميزار ذكر عن أبى عمرو الشيبانى قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على ميقاتها . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . فسكت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو استزدته لزادنى " .

حدثنا على بن عبد الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا سفيان قال حدثنى منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا " "١" .

وقال الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم " ١٠ ــ الصف .

---

(١) المصدر نفسه ــ جـ ٦ ــ ص ٣ ــ ٤ .

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال حدثنى عطاء بن يزيد الليثى أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه حدثه قال : قيل يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله . قالوا : ثم من ؟ قال : مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره" .

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " مثل المجاهد فى سبيل الله ـ والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله كمثل الصائم القائم . وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة " "١" .

حدثنا معلى بن أسد حدثنا وهيب حدثنا حميد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها " . "٢"

حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن عمرو عن ابى وائل عن أبى موسى رضى الله عنه قال : " جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله" "٣"

ومن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتقدمة يتضح لنا أهمية الجهاد وفضل الجهاد وقيمة الجهاد ومكانته عند الله لذا كان الجهاد صفة من صفات المؤمنين الصادقين . وكل جهاد سواء بالمال أو النفس فهو جهاد وقد يتساوى الجهاد بالمال مع الجهاد بالنفس وذلك لشدة الحرص عند الانسان فى حفاظه على المال . وقد يضحى بنفسه تجاه ماله فيكون المال فى هذه الحالة أغلى من النفس وفى الآية الكريمة تقدم ذكر المال على النفس ، وفى ذلك اشارة الى أهمية الجهاد بالمال ..... ومع ذلك لم يبخل الصحابة رضى الله عنهم بشىء

---

(١) المصدر نفسه جـ ٦ ـ ص ٦
(٢) نفس المصدر ـ جـ ٦ ـ ص ١٣
(٣) نفس المصدر ـ جـ ٦ ـ ص ٢٨

فنراهم يقدمون النفس في موقف بذل النفوس ، ويبذلون المال في موقف بذل المال .

حدثنا سعد بن حفص حدثنا شيبان عن يحيى عن أبى سلمة أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال " من أنفق زوجين "١" في سبيل الله دعاه خزنة الجنة ـ كل خزنة باب أى فل ، هلم ، قال أبو بكر يارسول الله ، ذاك الذى لا توى عليه ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انى لأرجو أن تكون منهم " .

حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا الحسين قال حدثنى أبوسلمة قال حدثنى بسر ابن سعيد قال حدثنى زيد بن خالد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى سبيل الله بخير فقد غزا " "٢"

ومن مواقف البذل والسخاء فى سبيل الله .....

فهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه يشترى بماله بئرا ويجعلها مرفقا عاما يستقى منه الوارد ون ويجهز عشرة آلاف مقاتل أنفق عليهم عشرة آلاف دينار غير الابل والخيل حتى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " اللهم أرض عن عثمان فانى عنه راض " .

وعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه جاء بمائة أوقية من ذهب ، وعمر رضى الله عنه يأتى بنصف ماله . وأبو بكر رضى الله عنه يأتى بماله كله ويترك وراءه فتيان بلا مال وأبا شيخا لا يجدون ما ينفقون .

وفى ذلك الصدق والاخلاص ، بذل النفوس والأموال فى سبيل الله والانفاق فى سبيل الله شطر الجهاد ، والجهاد يحتل أعلى ذروة من الاسلام وأرفع مكان . كل ذلك عن يقين قوى وتصديق ثابت .

وان الجهاد الذى حملوا رايته لم يكن بدافع غريزى وقضاء شهوة حب التسلط والانتقام والسيطرة والاستعمار ، وانما كان ولم يزل غايته الأولى والمثلى هو لاعلاء كلمة الله ولتكون كلمة الله هى العليا على العالمين ، وحماية

---

(١) زوجين : أى شيئين من أى نوع كان مما ينفق

(٢) المصدر نفسه ـ جـ ٦ ـ ص ٤٨ ـ ٤٩

لدعوتهم وديارهم وأموالهم من أن تمتد اليها يد الاعداء • انه للجهاد فى سبيل الله لاسعاد البشرية واقامة العدل والمساواة •

وأكبر دليل على ذلك التطبيق العملى الذى كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم فهذا عمرو بن العاص رضى الله عنه حين دخل مصر ووصل الى بلبيس ورأى أرمانوسة ابنة المقوقس رحب بها وآواها وحفظها ورعاها ، فلم تطرف اليها عين ولم تمد اليها يد ، وخيرها بين أن تبقى كريمة فى رحابه أو تسافر الى أبيها محفوفة بحفظه وحراسته فاختارت الذهاب الى أبيها لتقول كلمتها الخالدة : ان الفتاة لتخشى على عرضها من أبيها ولا تخاف عليه من هؤلاء الفاتحين !

وعمر بن الخطاب يوم فتح بيت المقدس ، دخلها وهو خاشع لله متواضع ، حوله الرهبان والقسيسون ــ وتدق أجراس الكنائس ، ويتعالى صوت الأذان ــ الله أكبر الله أكبر ــ ويأبى عمر رضى الله عنه أن يصلى فى كنيسة القيامة لكى لا يحولها من يأتى بعده الى مسجد ويختار بقعة من الأرض خارج الكنيسة ليصلى بها ولتبقى حتى الآن مسجدا يحمل اسم عمر رضى الله عنه • وقد كتب لهم عهده المشهور الذى يكفل لهم الحرية التامة والمساواة والعدل •

وهذه الآية الكريمة التى ذكرت بعض الصفات للمؤمنين الصادقين فهناك الآيات الكثيرة فى كتاب الله تعالى ذكرت صفات أخرى للمؤمنين :

قال الله تعالى : " ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون • "

فذكرت هذه الآية ستة صفات :

١ ــ الايمان بالغيب
٢ ــ اقامة الصلاة
٣ ــ الانفاق أو أداء الزكاة
٤ ــ الايمان بالقرآن المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
٥ ــ الايمان بالكتب السماوية والصحف المنزلة على الرسل والأنبياء من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم •
٦ ــ الايمان باليوم الآخر •

ثم تأتى الآيات التى تحدد صفات أخرى .

قال الله تعالى " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . انها ساءت مستقرا ومقاما . والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما . والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما .

وأهم الصفات التى ذكرت فى هذه الآيات الكريمة :

١) السكينة ٢) التواضع

عن عياض رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ان الله أوحى الى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد " "١"

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ما أنقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله " . "٢"

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب " "٣"

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه

(٢) أخرجه مسلم

(٣) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما

الصفة الثالثة : هى كونهم ساجدين قائمين لربهم سبحانه وتعالى • وفى هذه الصفة المقام العظيم للمؤمنين وهى صفة تدل على خوفهم من الله ورغبتهم بما عنده • وفى ذلك عنوان الاخلاص• لأن العبادة عندما تكون بعيدة عن أنظار الخلق وفى جوف الليل تكون أبعد ما تكون عن الرياء •

وفى ذلك الحث على التمثل بأخلاق المؤمن التى تقربه من الله • عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ،وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام " "١"

الصفة الرابعة : خوفهم وخشيتهم من الله تعالى •

الصفة الخامسة: كونهم وسط فى جميع أحوالهم • لا اسراف الى حد الحرام ، ولا تقتير الى حد البخل • روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا " ويقول الآخر : " اللهم أعط ممسكا تلفا "• وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : انفق يا ابن آدم ينفق عليك " "٢"

الصفة السادسة : كونهم لا يقترفون المعاصى وعلى الأخص منها الكبائر وهى الشرك بالله ــ والزنى ــ وقتل النفس التى حرم الله الا بحقها ــ •

الصفة السابعة : اتصافهم بالحق وقول الصدق وذلك باجتنابهم عن شهادة الزور وقول الزور بالاضافة الى تنزيه أسماعهم عن اللغو الذى لا فائدة فيه وعن سماع كل شىء باطل من غناء ونياحة وكذب ••• الى غير ذلك من المحرمات •

الصفة الثامنة : أنهم يهرعون الى أوامر ربهم بالطاعة والانقياد بحيث يصغون الى آيات ربهم اصغاء الواعى لفهم الشىء وتدبره •

الصفة التاسعة : وهى حرصهم على أن تكون ذريتهم وأزواجهم متمسكين

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح •

(٢) متفق عليه •

بد ينهم حريصون عليه ولا يحيد ون عنه ولا يخطئون طريقه • وفى ذ لك سعاد تهم عند مايتحقق ذ لك فى ذ ريتهم وأزواجهم ، ويكونون بعيد ين عن مظاهر الد نيا وزخارفها • ثم بعد ذ لك دعوتهم الصالحة بأن يجعلهم الله قد وة خير يقتد ى بهم فى أمور الد ين ، وأن يوفقوا لصالح العمل الذ ى يؤهلهم ويصلحهم لأن يكونوا أهلا لقياد ة المسلمين الى الله تعالى على منهج الحق القرآن والسنة وبذ لك تتحقق أمنيتهم بالحياة برفعة راية الاسلام واعلاء كلمته والقيام بحكمه•

وقد أعد الله لهؤلاء النعيم المقيم وجنة وحور عين وكرامة عظيمة عند الله وذ لك الفوز العظيم والأمنية الكبرى لكل مؤمن • جعلنا الله والمسلمين من عباد ه الأبرار المتقين العاملين فى مرضاته القائمين بأمر دينه على نهج كتابه وسنة نبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم •

ثم تتوالى الآيات الكريمة فى وصف المؤمنين • قال الله تعالى :
" انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زاد تهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون • الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • أولئك هم المؤمنون حقا " سورة الانفال •

وقال تعالى : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجد وا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " سورة النساء ــ ٦٥ ــ

وقال تعالى : " انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا " سورة النور ــ ٥١ ــ

الى غير ذ لك من آيات القرآن الكريم التى توضح صفات المؤمنين الصادقين• وقوام كل مامر من صفات وأعمال وأقوال الاخلاص الذ ى هو ثمرة الأعمال وعليه يقوم قبول الاعمال عند الله تعالى •

الاخلاص وأثره في الأعمال :

ثم تتوالى التنبيهات والتحذيرات لقوم لم يعرفوا حقيقة الايمان وذلك بعد أن بين سبحانه صفات المؤمنين الصادقين . قال الله تعالى : " قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم مافي السموات ومافي الأرض والله بكل شيء عليم " .

سخف على أثر سخف ، وجهل على أثر جهل ، وحماقة على أثر حماقة . يقفون ويثبتون ويحلفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم مؤمنون معتقدون مايقولون ويبرهنون على صدق ما يدعون . وكل ذلك دليل عليهم لا لهم ، وأنهم على غير مايقولون ودليل واضح على جهلهم بحقيقة الايمان الذي يريدون اثباته . ألم يعلموا بأنهم أمام رسول يوحى اليه من السماء ؟ ألم يعلموا بأن الله الذي آمنوا به وبرسوله مطلع عليهم وهو يعلم السر وأخفى ؟ جهلوا فوقعوا فيما لم يحسبوا له حساب وكان التوبيخ الشديد لهم خاصة . ولكل مدع وصاحب دعوى لم يقم على صحتها دليل من عقيدته أو عمله ، أن يكون صادقا فيما يدعي ، والا كذبه الواقع وكذبه الله الذي يعلم مافي السموات والأرض . وكذبه الناس بما لهم من وعي وادراك ويحكمون به على الجهود لانه لا يوجد ايمان لاتكون له آثار عملية . ولقد أشارت الآية السابقة الى أن المؤمن الحق لابد وأن يكون له انتاج نافع ومفيد يعود على المجتمع بالخير العميم وعلى الدنيا بالسعادة والرفاهية والتقدم والازدهار والكرامة والحرية فكان ذلك السخاء بالمال والجهاد بالنفس وذلك أقصى غاية الجود والبذل والعطاء كل ذلك بصمت ودون ادعاء أورياء أو حب سمعة أو رغبة في دنيا من جاه وسلطان لانهم علموا أن الله الحق الذي آمنوا به وصدقوا رسوله سوف يجازيهم بما عملوا من خير وهو المطلع على سرهم وعلانيتهم . " والله بكل شيء عليم " .

ومن صدق الدعوى أن لا يمن بالنعمة الموهوبة اليه على موليها اليه وواهبه اياها ، لأن الايمان هو كبرى النعم التي منّ الله بها على عباده المؤمنين .

فهذا الفضل العظيم من الله تعالى لعباده المؤمنين يستوجب عليهم أن يبادروا بالشكر والحمد والثناء بالاخلاص له سبحانه بالعبادة والخضوع له دون سواه ، وبذلك التجريد الخالص لله وحده يكونوا قد أدوا بعض ما أمرهم الله به ، وان الله تعالى هو الغني عن عباده وعن كل مايفعلون ومايقومون به من أعمال انما هو لصلاحهم ولسعادتهم لو كانوا يعقلون . أما المؤمنون فقد عقلوا

ذلك فتراهم على شرع ربهم سائرون ، ولمنهجه مطبقون ، ولاعلاء كلمة الله منتصرون وبعزة الله سبحانه وتعالى يعتزون . ولا يرضيهم من حياتهم أن تكون لغير الله راية ترفع ، أو دستور يطبق ، أو منهج حياة يتبع لمعرفتهم بما وهبهم الله من معرفة أن الخير كل الخير ، والسعادة كل السعادة ، والفلاح كل الفلاح ، والعدل والمساواة والكرامة والأمن والاستقرار لا يتحقق لبني البشر قاطبة الا بتطبيق شريعة الله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا فوق العالمين .

وما نراه اليوم من تخبط وفوضى وقتل وسلب كل ذلك من ضلال الطريق وعمية الجاهلية وفساد الرأى ، كل ذلك ناتج عن الابتعاد عن منهج الله وشريعة الله لأن الهوى والشهوة اذا غلبت على بني البشر كان روح ذلك وأثره في قوانينهم ، فتنعكس بعد ذلك على حياتهم ، وان هذه الحيرة التي تقع فيها البشرية اليوم ، لابد وأن تصحوا على فجر جديد للإسلام ينقذها انشاء الله تعالى .

ونتاج ذلك كله وأثره الحقيقي على الأعمال وابرازها بالصورة العملية الواقعية هو الاخلاص . ومن الآيات القرآنية الكريمة التي أبرزت معنى الاخلاص وأثره : قال الله تعالى " وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة " سورة البينة (٥) .

وقال تعالى : " انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص " (٢ ـ ٣) سورة الزمر .

وقال الله تعالى : " قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " (١٦٢ ـ ١٦٣ الأنعام .

ومن الأحاديث الشريفة التي تؤكد على الاخلاص : ماروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض " رواه ابن ماجه والحاكم .

وفيما يرويه البيهقي : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان ؟ فقال : " الاخلاص " .

ومن رواية الامام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله لا ينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى

قلوبكم " أخرجه مسلم فى صحيحه ، وابن ماجه فى سننه .

وفى بيان حقيقة الاخلاص ذكر الغزالى فى كتاب الاحياء قال اذ سئل سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم عن الاخلاص فقال :
" أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت " أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت .

فضيلة الاخلاص :

قال الله تعالى " وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين " . وقال تعالى :" ألا لله الدين الخالص " . وقال تعالى : " الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله " . وقال تعالى : " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " . نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله . صححه الترمذى من حديث النعمان بن بشير

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : النبى صلى الله عليه وسلم " انما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم وصلاتهم . " ١ "

وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى " الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى . " ٢ "

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل تخريج العراقى (حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل يجزك منه القليل أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع . وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

---

(١) رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ " هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم "
(٢) حديث الحسن مرسلا يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الاخلاص فقال وهو من رواية احمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى واحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه ابو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف " ١ . هـ

وقال عليه السلام : ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه " .

تخريج العراقى (حديث ما من عبد يخلص لله أربعين يوما ، ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات عن أبى موسى .....

.....

وقال عليه السلام " أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يا رب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك . ورجل قتل فى سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبوهريرة ثم خبط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة .

فدخل راوى الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله اذ قال من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... الآية .

.....

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الى أبى موسى الأشعرى " من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس .

وقال يحيى بن معاذ " الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم ، ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص .

نسأل الله تعالى العظيم أن يرزقنا الاخلاص فى القول والعمل ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يمن علينا بكمال الايمان ويذيقنا حلاوته ويتولانا بحفظه ورعايته وتوفيقه لنكون كما يحب هو ويحب رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقربنا الى كل عمل يقربنا الى حبهما والحمد لله رب العالمين .

الخاتمـــــــــــــة

الخاتمـــــة

نحمد الله تعالى الذى هدانا ووفقنا لانجاز هذه الرسالة التى اشتملت على مقدمة وستة أبواب :

البـــاب الأول :

التربية الاسلامية مع مقارنة بالتربية الحديثه .

البـــاب الثانـى :

واشتمل على أسباب نزول الآيات الكريمة .

البـــاب الثالـث :

وقد تضمن معنى التقديم وحكم رفع الصوت فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلـــم .

البـــاب الرابـــع :

كان فى المنهج الاسلامى فى التحرى عن الأخبار .

البـــاب الخامـــس :

مبدأ الاصلاح فى المجتمع الاسلامى مع تقرير للأخوة الاسلاميـة ومكانتها وحكم النزاع بين الفئات الاسلامية .

البـــاب السادس :

صفات المؤمنين والاخلاص وأثره فى الأعمال .

وخاتمة القول أن سورة الحجرات كانت بحق المنطلق العظيم ، والمنهـــج القويم لمجتمع مثالى رباه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى فى آياتهـا الثمانية عشر دستور وقانون ومبدأ ، وتعريف للهدف العام ، وتربيـــة سلوكية ومسلكية فى واقع الحياة ، وربطها مع واهب الحياة لتكون قائمـة على

الارتباط الوثيق بالاله المعبود ، ثم لم تترك السورة أن توجه الى أمرهام وجد هام وهو الالتزام بالأدب الكامل والاحترام المطلق والتعظيم والتبجيل للرسول المبلغ عن الله لكى تستقيم الأمور وترتسم لهم سبل حياتهم كما يريدها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث الارشاد العام بأن لا يكون لأى انسان مهما علت منزلته رأى فى حكم أو فى قول أو فعل يقدم على حكم الله ورسوله فيه .

وذلك الانقياد الكامل والتسليم المطلق لله تعالى الحكيم العليم ، وعلى ذلك تتحقق الحاكمية لله وحده فى الأرض . وباتباع تعاليم الله ينشأ المجتمع النظيف المتكامل فى كل مقومات حياته ، وذلك من التوجيهات النبوية ، والأوامر الربانية التى لا يعتريها الخطأ ، ولا ينتابها الانحراف ، ولا يقودها الهوى .

كل ذلك كان بالتوجيه الربانى للمجتمع المثالى الذى تحقق على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان المنطلق السامى لهداية البشرية جمعاء ، ولاخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة رب العباد كما قرر لهم ما يقيم لهم الحياة السعيدة المليئة بكل خير ، حيث الأمن والاستقرار ، وحفظ الحرمات وصيانة الكرامة والحرية مع مبدأ التساوى وتقرير مبدأ الكرامة وهو التقوى مع الاخلاص فى كل أمر لله سبحانه وتعالى . وأن هبة الايمان الكبرى هى هبة الله العظيمة والمنة الكبيرة على العباد من الله سبحانه وتعالى .

وقد تناولت السورة جميع أنواع الأدب فى القول والفعل فكان الارشاد الى كيفية الخطاب من ارتفاع صوت أو انخفاضه حسب الظروف وحسب المقام وحسب الشخص المخاطب ، فالأدب الكامل مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يأتى بعد ذلك البيان فى أثر سوء الأدب وعواقبه فكانت النتيجة العملية بأن انخفضت الأصوات وقلت التساؤلات والاستفسارات الا بما يتعلق بالحوادث الواقعة والضرورات الملحة . ثم يأتى بعد ذلك تقرير هام وعظيم ، ومبدأ أساسى ، ونظام قويم وهو التحرى القوى والتثبت الأكيد ، والتتبع الدائب لصدور الأخبار والأقوال التى تقوم عليها سلامة الأمة الاسلامية ، والحياة العلمية ، والمجتمع المسلم من أن يدخل اليه دخيل ، أو يفسد فيه مفسد ، أو يفتن فيه فتان ، أو يكيد فيه شيطان باشعال الفتنة وايجاد الخلل فى صفوف الجماعة المسلمة . فكان هذا التأكيد القوى خصما للنزاع ، ومنعا لكل خلاف ، وقطعا للتساؤلات . حيث الارشاد الى منبع الخير ، ومنطلق الخير ، والرجوع الى منبع النور ، والمرشد الأول الذى لا ينطق عن الهوى حيث السعادة العظمى والاستقرار والقوة والمنعة ، والنجاة باتباع تعاليمه وارشاداته . كل ذلك كان قبل تقرير حكم قتال المؤمنين بعضهم مع بعض ، وحكم الفئة الباغية .

ثم يأتى التذكير بالأخوة الايمانية التى هى أعلى من أخوة النسب عندما تكون أخوة النسب مبتعدة عن الأصل الأول وهو الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم حسما للنزاع وأسبابه وذلك بقطع ومنع كل ما يثير الضغائن ، ويوغر الصدور من ألقاب لا تليق بالمؤمن ، ومن تسميات تنافى ما اتصف به من ايمان . وليس الأمر كذلك فحسب وانما سار الى أبعد من ذلك حيث حاكى هواجس النفوس ، وخواطر القلوب ، وما يحيك بالصدر من قول ليس فيه دليل على ما يثار فى الباطن وهو أن يظن المؤمن بأخيه السوء أو يتتبع عوراته ويكشف خفاياه ، والتكليف الكبير والعظيم هو الحفاظ على حرمة المسلم فى حضوره وغيابه بحيث يعيش المجتمع المسلم وحدة متكاملة متراصة قوية تسوده المحبة مكان البغضاء ، والسلامة مكان الحقد ، والصفاء

مكان الكدر ، والنور مكان الظلام . لأن مايثار عادة من أمور سيئة وأخلاق بعيدة عن التربية الاسلامية ليس لها مصدر حقيقي يجعل الناس يتفاضلون به بعضهم على بعض ، وانما أصل البشر جميعا واحد ، فأبوهم واحد ، وأمهم واحدة ، وانما جعل التفاضل على أساس واحد وهو ماكان عند الله خالق هذا الكون ، وواهب الحياة مقبولا ، فالنسب المقبول عند الله هو التقوى وهى الميزان الحقيقى والمنطلق الصحيح الذى يقوم على أساس التفاضل بين البشر . لاقيمة للعرق ولا قيمة للون ولا قيمة لحسب ، اذا انفصل عن الأساس الأصيل وهو التقوى .

ثم التفات جميل ورائع الى البشرية جمعاء ، والى من آمن بالله ورسوله خاصة بأن يخلصوا أعمالهم ونياتهم لله الذى وهبهم الحياة وهو الواهب للنعمة الكبرى لمن آمن بالله ورسوله وهى نعمة الايمان . فالمنة والفضل لله وحده دون غيره سبحانه وتعالى ، هو الذى يعلم السر وأخفى .

فحرى بالمؤمن أن يتجه بكل جوارحه ووجدانه وقلبه الى خالقه وبارئه . ومن هذا الفهم لابد أن يكون الاخلاص لله وحده ، فان فقد هذا الاخلاص فيكون قد خسر الشىء الكثير . وليستشعر دائما بأن الله هو المنعم ، والمتفضل عليه فى كل نعمة . وان نعمة الايمان الموهوبة للانسان من الله تعالى هى لخير المرء وسعادته فى الدنيا والآخرة .

وكانت سورة الحجرات بارتباطها القوى مع سورة الفتح التى كانت قبلها فى ترتيب الكتاب وفى النزول أقوى الرابطة من حيث المعانى ، فكان استمرار للمنهج التربوى المتكامل الذى انتهجه القرآن الكريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ثبت المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ ابن كثير ، اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ـ تفسير القرآن العظيم ـ ط . دار الفكر .

٣ ـ أبوالسعود ، أبوالسعود بن محمد العمادي الحنفي ـ تفسير ـ تحقيق عبد القادر احمد عطا ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض .

٤ ـ أحكام القرآن ، الجصاص .

٥ ـ أحكام القرآن ، ابن العربي ، القاضي أبوبكر .

٦ ـ أحكام القرآن ، الشافعي ، محمد بن ادريس الشافعي ـ ط . الاولى ـ عزت العطار الحسيني ١٣٧١هـ .

٧ ـ اقتضاء الصراط المستقيم ، ابن تيمية ، ط . دار الحكومة ـ مكة المكرمة .

٨ ـ أسباب النزول ـ أبي الحسن علي بن احمد الواحدي النيسابوري القاهر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

٩ ـ البغوي ، الحسن بن مسعود الفراء ابو محمد ـ معالم التنزيل .

١٠ ـ بصائر ذوي التميز ـ الفيروزابادي .

١١ ـ الزمخشري ، أبي القاسم جاد الله محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ـ مصر ـ مصطفى البابي الحلبي ـ ط. الاخيرة ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م.

١٢ ـ الطبرى ، محمد بن جرير الطبرى ـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن ط٠ الثانية ـ مصر ـ مصطفى البابى الحلبى ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م٠

١٣ ـ الجامع الصحيح ـ الترمذى ـ تحفة الأحوذى ٠

١٤ ـ الجامع الصغير ـ السيوطى ـ ط٠ الأولى ـ عيسى البابى الحلبى ـ ١٣٧٣ هـ٠

١٥ ـ الآداب الشرعية ـ ابن مفلح ٠

١٦ ـ زاد المسير ـ ابن الجوزى ـ المكتب الاسلامى ٠

١٧ ـ الدين الخالص ـ محمد صديق حسن ، مطبعة المدنى ٠

١٨ ـ البحر المحيط ـ أثير الدين أبى عبد الله محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى الغرناطى ، المشهور بأبى حيان ، الرياض ـ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ٠

١٩ ـ الوحى المحمدى ـ محمد رشيد رضا ـ ط٠ الثانية ـ مصر ـ مطبعة المنار ٠

٢٠ ـ حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوى ـ ط٠ دار القلم ـ دمشق٠

٢١ ـ التفسير الواضح ـ الدكتور محمد حجازى ٠

٢٢ ـ تنوير المقياس ـ ابن عباس ـ

٢٣ ـ الدر المنثور ـ تفسير ـ السيوطى ٠

٢٤ ـ مجمع البيان فى تفسير القرآن ٠ الطبرسى ٠

٢٥ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه البخارى ومسلم ـ محمد فؤاد عبد الباقى ٠

٢٦ ـ القاسمى ـ محمد جمال الدين ، محاسن التأويل ٠

٢٧ ـ سنن النسائـى ٠

٢٨ ـ التفسير الحديث ـ محمد عزة دروزه ٠

٢٩ ـ مجمع الزوائد ، الحافظ الهيثمـى ٠

٣٠ ـ الفتوحات الالهية ، سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهيـر بالجمل ٠ ط ٠ عيسى البابى الحلبى ٠

٣١ ـ الفخر الرازى ، ط ٠ الاولى ـ عبد الرحمن محمد ـ مصر ٠

٣٢ ـ النسفى ، النسفى ٠

٣٣ ـ روح المعانى ، الالوسـى ٠

٣٤ ـ صحيح مسلم شرح النووى ٠

٣٥ ـ فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ط ٠ الخامسة

٣٦ ـ الأخلاق ـ عبد الله دراز ٠

٣٧ ـ التربية وطرق التدريس ـ عبد الرحمن النحلاوى وآخرون ـ الرئاسة العامة للكليات والمعاهد ـ المملكة العربية السعودية ٠

٣٨ ـ منهج التربية الاسـلامية ـ محمد قطب ـ دار الشروق ٠

٣٩ ـ نيل الأوطار ـ الشوكانى ٠

٤٠ ـ الفتح الربانى ـ ترتيب مسند الامام احمد ـ احمد عبد الرحمن البنا ٠

٤١ ـ فتح البارى ـ ابن حجر ـ المطبعة السلفية ٠

٤٢ ـ فتاوى ـ ابن تيمية ـ ـ ١٣٨٢ هـ ٠

٤٣ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ لأبى عبد الله محمد بن احمد الأنصـارى القرطبى ـ القاهرة ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشـر ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧ م ٠

٤٤ ـ كلمة الاخلاص ـ الحافظ بن رجب الحنبلى .

٤٥ ـ احياء علوم الدين ـ أبو حامد الغزالى .

٤٦ ـ مصادر التشريع الاسلامى ، عبد الوهاب خلاف ، الكويت دار القلم .

٤٧ ـ الأم ـ فقه ـ الشافعى ـ ابو عبد الله محمد بن ادريس ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ط . الثانية ـ ١٣٩٣ هـ .

٤٨ ـ جامع الأصول ـ لابن الاثير .

٤٩ ـ الفواكه الدوانى ـ احمد بن غنيم بن سالم بن مهنا النفراوى المالكى ـ بيروت ـ دار الفكر .

٥٠ ـ النظم الفنى للقرآن ـ عبد المتعال الصعيدى ـ مكتبة الآداب بالجماميز .

٥١ ـ اعلام الموقعين ـ ط . الدمشقى .

٥٢ ـ الجريمة والعقوبة فى الفقه الاسلامى ـ أبوزهرة ـ ط . دار الفكر العربى .

٥٣ ـ جواهر الاكليل شرح مختصر خليل ـ شرح صالح عبد السميع الآبى الأزهرى ـ بيروت ـ دار الفكر .

٥٤ ـ رحمة الامة فى اختلاف الائمة ـ أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدمشقى العثمانى الشافعى ـ مصطفى البابى الحلبى .

٥٥ ـ مختصر ابن كثير ـ محمد على الصابونى ـ دار القرآن .

٥٦ ـ لسان العرب ـ قاموس .

٥٧ ـ قاموس قرآنى ـ حسن محمد موسى ـ مطبعة خليل ابراهيم ـ الاسكندرية .

٥٨ ـ المفردات فى غريب القرآن ـ الراغب الأصفهانى ـ هو أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل .

٥٩ ـ الفروق ـ القرافى ـ أبى العباس الصنهاجى ـ بيروت ـ دار المعرفة .

٦٠ ـ تدريب الراوى حـ ـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ط . ثانية ـ دار الكتب الحديثة .

٦١ ـ فتح المغيث ـ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ـ المدينة المنورة ـ المكتبة السلفية .

٦٢ ـ الباعث الحثيث ، للحافظ ابن كثير ـ احمد محمد شاكر ـ ط. الثالثة . مصر ـ مطبعة محمد على صبيح وأولاده .

٦٣ ـ الحديث والمحدثون . الشيخ أبو زهو .

٦٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقى ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية . ١٣٦٤ هـ .

٦٥ ـ التفسير القيم ـ ابن القيم ـ محمد اويس الندوى ـ حققه محمد حامد الفقى ـ بيروت ـ لجنة التراث العربى .

٦٦ ـ السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة ـ الدكتور محمد محمد أبوشهبه .

٦٧ ـ التربية وطرق التدريس ـ د . عبد الرحمن النحلاوى ومجموعة .

٦٨ ـ التربية قديمها وحديثها .

٦٩ ـ الأصول الثقافية للتربية .

٧٠ ـ التربية المقارنة ـ نيقولاس هانز .

٧١ ـ المذهب التربوى عند الغزالى .

٧٢ ـ الأسس الاجتماعية للتربية ـ محمد لبيب النجيحى .

٧٣ ـ تاريخ التربية والتعليم ـ د . سعد مرسى احمد ، د . سعيد اسماعيل على .

٧٤ ـ التربية العامة ـ رونيه أوبير ـ ترجمة عبد الله عبد الدائم •

٧٥ ـ رسائل فى التربية الاسلامية ـ بيروت ـ دار العلم للملايين •

٧٦ ـ اخوان الصفا •

٧٧ ـ الغزالـــى •

٧٨ ـ الطوســـى •

٧٩ ـ ابن جماعـــة •

٨٠ ـ ابن خلـــدون •

٨١ ـ ابن حجـــر •

مع الاطلاع على غير ما ذكر من المراجع حيث استفدت منهـا الفائدة العامة التى عادت على الموضوع •

واللـــه الموفـــق •